علي عزت بيجوفيتش

الإعلان الإسلامي

تحقيق وترجمة

محمد يوسف عدس

دار الشروق

Bibliotheca Alexandrina
00118924

الإعلان الإسلامي

الطبعـــة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

علــى عــزت بيجــوفيتش

الإعلان الإسلامى

تحقيق وترجمة

محمــد يــوسف عـــدس

دار الشروق

محتويات الكتاب

مقدمة المترجم ٧

على عزت بيجوفيتش: فكره ومواقفه ١٣

الإعلان الإسلامى المفترى عليه ٣١

حول موضوع الكتاب ٤٠

مقدمة المؤلف ٤٥

الفصل الأول: تخلف الشعوب المسلمة ٤٩

المحافظون ودعاة الحداثة ٤٩

جذور العجز ٥٤

لا مبالاة الجماهير المسلمة ٥٩

الفصل الثانى: النظام الإسلامى ٦٣

الدين والقانون ٦٣

ليس الإسلام مجرد دين ٦٥

إشكاليات النظام الإسلامى ٦٧

١ ـ الإنسان الفرد والجماعة ٦٨

٢ ـ المساواة بين الناس ٦٩

٣ ـ الأخوّة بين المسلمين ٧٠

٤ ـ وحدة المسلمين ٧٠

٥ ـ الملكيّة ٧١

٦ - الزكــــاة والربا ٧٢
٧ - المبـدأ الجـمـهـورى ٧٣
٨ - لا إلــه إلا الــلــه ٧٤
٩ - التــربيــة ٧٥
١٠ - التــعليم ٧٥
١١ - حــرية الضــمــيــر ٧٦
١٢ - الإســلام والاســتــقــلال ٧٧
١٣ - العــمــل والجــهــاد ٧٨
١٤ - المرأة والأســـــرة ٧٩
١٥ - الغــاية لا تبــرر الوســيلة ٨١
١٦ - الأقليــــات ٨٢
١٧ - العــلاقــات مع المجــتــمــعــات الأخــرى ٨٢

الفصل الثالث: المشكلات الراهنة للنظام الإسلامى ٨٥
النهضة الإسلامية: ثورة دينية أمْ سياسية؟ ٨٥
السلطة الإسلامية ٨٩
باكستان - جمهورية إسلامية ٩٠
الجامعة الإسلامية والقومية ٩١
المسيحية واليهودية ٩٨
الرأسمالية والإشتراكية ١٠٠

خــلاصــة ١٠٥

كشاف الأعلام والموضوعات ١٠٩

مقدمة المترجم

هذه مقدمة غير عادية لكتاب غير عادي ومؤلف غير عادي أيضا. أما أن كتاب «الإعلان الإسلامي» كتاب غير عادي فيكفي تدليلا على ذلك أنه أثار عاصفة سياسية إعلامية لا في يوغسلافيا وحدها بل في أوربا والعالم الغربي بأسره. وهي عاصفة بدأت قبل حرب البوسنة بعشر سنوات ثم صاحبت الحرب واستمرت آثارها باقية إلى اليوم. ويكفي أن هذا الكتاب اعتبرته السلطات اليوغسلافية الوثيقة الأساسية التي قدمت إلى محكمة «سراييفو» عام ١٩٨٣ لإدانة مؤلفه بتهم ملفقة ستتناولها بالتفصيل في موضعها من المقدمة، و المهم أن هذا الكتاب استخدم ذريعة لتجريم على عزت والحكم عليه بالسجن أربع عشرة سنة. ويكفي أن هذا الكتاب قد تعرض لقدر هائل من التعليق والنقد والتجريح والدفاع والهجوم، بل تعرض للتحريف والتشويه حتى أصبحت له شهرة مدوِّية عند المثقفين والقراء، الأصدقاء منهم و الأعداء، سواء منهم الذين قرأوه في لغته الأصلية «الصربو- كرواتية» صحيحة أو محرفة، أم الذين قرءوا نسخه المترجمة إلى مختلف اللغات العالمية، أم الذين اكتفوا بقراءة الملخصات والتعليقات التي حفلت بها الصحف والكتب في شتى أنحاء العالم، بل حتى الذين لم يقرءوا شيئا من ذلك بل سمعوا عنه فحسب. و كان من نتائج هذه الشهرة الذائعة أن ارتبط ذكر هذا الكتاب بلازمة نمطية «مقولبة» هي: «إقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة» على أساس زعم بأن هذا هوالموضوع الرئيسي للكتاب و هو هدفه النهائي في نفس الوقت. وسنرى الى أي مدى ينطبق هذا الزعم على حقيقة الكتاب عندما نتطرق الى هذه النقطة في سياق المقدمة، ليكشف القارئ بنفسه أنه أمام زعم باطل وفرية كبرى مفتراة، من أجل ذلك كله كان هذا الكتاب كتابا غير عادي.

أما مؤلف الكتاب «علي عزت بيجوڤيتش» فأزعم أنه رجل غير عادي؛ لا لأنه رئيس جمهورية «البوسنة والهرسك» وأنه من النادر أن تصادف رئيسا على هذا المستوى الرفيع من الفكر والثقافة. ولا لأنه قاد جهاد شعب البوسنة الأعزل في أحلك

فترات تاريخه ضد التدخل الصربى الغاشم، وضد المؤمرات والتواطؤ الغربى الفاضح وضد التخاذل المهين للمجتمع الدولى الذى وقف يشاهد مذابح البوسنة دون أن يحرك ساكنا، ولا لأنه مفكر إسلامى وإنسانى من طراز فريد، استحق جائزة الملك فيصل على كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» الذى تشرفت بترجمته إلى اللغة العربية؛ فهو من الرجال الأفذاذ الذين يشرّفون الجائزة ويرتفع قدرها بهم، ولا لأنه يكتب ما يؤمن به ويقف مدافعا عن رأيه فى الحق متحملا صنوف الأذى والطغيان، حتى أنه بسبب ذلك أمضى فى السجون اليوغسلافية زهرة شبابه وشطرا من كهولته دون أن يفت ذلك فى عضده، ولا لأنه ضرب أعلى الأمثلة بسيرته المتواضعة وزهده وشموخه واعتزازه بعقيدته ورفضه الانحناء أو المواربة والالتواء أمام كل ما تعرض له من إغراءات وما وجه إليه من ضغوط وتهديدات فى كل مراحل حياته. لقد رفض على عزت بعد أن تم انتخابه رئيسا للجمهورية أن يغادر مسكنه المتواضع فى شقة صغيرة مع أسرته ومجموعة من الجيران السابقين متحملا معهم شظف العيش ومخاطر الحياة اليومية فى مدينة سراييفو التى ظل الصرب يحاصرونها ويقصفونها بقذائفهم قرابة أربعة أعوام متواصلة، لم يشأ على عزت أن ينتقل إلى قصر رئاسة الدولة وهو حقه، ولا أن يحيا حياة أكثر أمنا وأكثر راحة من بقية المواطنين البوسنويين، بل آثر أن يبقى مع جيرانه فى بيت متواضع يشاركهم فى المسكن والمأكل والمشرب، ويعانى معهم مخاطر الحياة اليومية فى المدينة المحاصرة. وتلك لعمرى وحدها سيرة شخصية يرتفع بها أى رجل إلى مصاف الأبطال العظام والحكام الأتقياء الزاهدين الذين يندر مثالهم فى التاريخ.

كل ذلك صحيح وثابت فى سيرة مؤلف هذا الكتاب، ولكن الذى لفت نظرى فى خلق هذا الرجل مع كل هذا وفوقه وتجاوز به كل توقعات الناس سواء منهم الأصدقاء أو الأعداء- لفت نظرى التزامه بالمبادئ الأخلاقية تحت كل الظروف والأوضاع، فقد عُرِفَ على عزت بمبادئه الأخلاقية والإنسانية قبل أن يتولى قيادة شعبه وقبل أن يتولى السَلطة فى بلاده وقبل أن يتعرض شعبه لحرب إبادة وحشية استخدمت فيها أحط الأساليب وأكثرها وضاعة، ولكن على عزت عندما تمكن جيشه فى النهاية من رقبة أعدائه وتحققت له انتصارات كاسحة عليهم لم يواجه الوحشية والوضاعة بأساليب مماثلة، فلم ينتهك جنوده عرضا، ولا استهدفوا بانتقامهم المدنيين والأطفال والمرضى فى المستشفيات، ولم يستخدموا القنابل والقذائف المحرمة دوليا، ولم يقيموا معسكرات للإبادة الجماعية، ولم يحرقوا البيوت والمعابد والأشجار والزروع، لم يفعلوا شيئا مما فعله بهم أعداؤهم عندما أصبح لجيش على عزت اليد العليا عليهم. إنها الحرب القذرة وكل شىء فيها جائز بمعايير هذا الزمن، لكن معايير الإسلام وتعاليمه

تختلف عن معايير الحضارة المعاصرة، فلم يكن على عزت بيجوفيتش ينفذ تعاليم أخلاقية وإنسانية آمن بها فقط وإنما كان فى مواقفه وسلوكياته مرتبطاً بتعاليم الإسلام التى التزم بها القادة والجنود فى حروبهم ومعاركهم. ولكن هذا المسلك المتميز لجيش البوسنة المسلم بقيادة على عزت بيجوفيتش- رغم الجروح الغائرة فى أعماق القلوب- هذا المسلك الأخلاقى جدير بأن تقف الإنسانية عنده طويلا لتتأمل وتعتبر. لقد كان الرجل دائما نصيرا للحق والعدل والحرية داعيا مخلصا للديمقراطية وحقوق الإنسان كارها للتعصب والعنصرية، مؤمنا بأن قدر بلاده أن تحيا فيها شتى الأعراق والأديان والطوائف على اختلافها جنبا الى جنب فى تعاون وسلام. . ورغم كل ما نزل بالقائد وشعبه من نوازل لم يتخل عن هذه المبادئ قيد أنملة. . وهذا هو المحك العملى والاختبار الصعب الذى تجاوزه على عزت بنجاح ساحق شهد به الأعداء قبل الأصدقاء. ولهذا اعتبرته رجلا غير عادى.

ولما كان كتاب «الإعلان الإسلامى» و مؤلفه ظاهرتين غير عاديتين فقد استحقا مقدمة تتناسب مع قدرهما، مقدمة تتناول طبيعة هذا الكتاب وتاريخه وما تعرض له من صنوف الهجوم والتجريح والتحريف، كما تعرض لأراء نخبة من المفكرين والصحفيين والكتاب الغربيين المشهود لهم بالموضوعية وتحرى الحقيقة فى سعيهم لكشف ما أحاط بالكتاب ومؤلفه من إدعاءات زائفة ومزاعم باطلة.

لذلك اشتملت المقدمة على ثلاثة أقسام: القسم الأول خاص بالمؤلف جعلته تحت عنوان «على عزت بيجوفيتش فكره ومواقفه». والثانى عن الكتاب تحت عنوان «الإعلان الإسلامى المفترى عليه» عرضت فيه آراء الباحثين الغربيين المنصفين كشهود على النص وعلى صاحبه، ثم ختمت بخلاصة موجزة للأفكار الرئيسية للكتاب من واقع عبارات المؤلف نفسه وهو صاحب القضية.

ولقد تبين لى خلال بحثى واستعراضى لما كتب عن الكتاب ومؤلفه أن الهجوم والتحريف والتشويه الذى لحق بالكتاب وصاحبه لم يأت عفو الخاطر وإنما جاء نتيجة لخطة محكمة التدبير تعتمد على الأساليب العلمية الحديثة فى الحرب النفسية الإعلامية من بينها ما يعرف اليوم بالقولبة وهى ترجمة للمصطلح الإنجليزى "Stereotyping" وسنرى كيف استخدم هذا الأسلوب فى تشويه صورة المؤلف وكتابه وكيف تسللت هذه الصورة المقولبة إلى وسائل الإعلام العربى فى غفلة من أصحابه.

وفى النهاية لابد أن أشير إلى حقيقة هامة اتضحت لى خلال قراءاتى حول الكتاب وخلال اطّلاعى على النسخ الإنجليزية منه وهى إننى لاحظت اختلافات فى النص بين

نسخة وأخرى، وهو ما أشار إليه بعض الكتاب البريطانيين الذين اطّلعوا على النص الأصلى فى لغته «الصربو- كرواتية». لذلك كنت حريصا قبل الشروع فى ترجمة الكتاب على التثبت من سلامة النص الإنجليزى ومن صحة نسبته الى مؤلفه. ولقد تهيأت لى ظروف مواتية للقيام بمراجعات كثيرة فى هذا الشأن حيث تمكنت من ضبط النص الإنجليزى، ومن ضبط أرقام الآيات والسور القرآنية التى استشهد بها المؤلف سواء فى سيا ق المتن أو فى هوامشه، حيث اكتفى بالإشارة الى الأرقام دون إيراد الآيات نفسها، ولما شعرت بأن هذا الوضع يشكل صعوبة للقارئ الذى يضطر- كل مرة يرد فيها رقم آية ما- إلى الرجوع إلى المصحف يبحث عنها- فقمت بإثبات هذه الآيات فى سياقاتها من المتن أو فى الإستشهادات المرجعية بالهوامش تيسيرا على القارئ. ولقد ساعدنى فى هذا الشأن صديقى الدكتور محمد أفضل الذى تصادف وجوده فى«جامعة جرينتش»بلندن فى مهمة بحثية مبعوثا من باكستان، كما تفضل - مشكورا- بالقيام بمهمة عرض النص الإنجليزى المحقق على الرئيس «على عزت» للحصول على موافقته تمهيدا لنشره.

هذا وكنت قد انتهيت من ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية خلال إقامتى بلندن، وقمت بتسليمه إلى الناشر فى ١٨ مايو ١٩٩٤ على أمل أن يتم نشره مع كتاب عن البوسنة اخترت لهما عنوانا جامعا هو «الإعلان الإسلامى لعلى عزت بيجوفيتش وكارثة البوسنة بين الحقيقة والأسطورة»، ولكن شاءت الأقدار- لظروف غير مواتية- أن يتأخر نشر الكتاب لفترة طويلة تجاوزت العامين، جدَّت فيها أحداث كثيرة فى مجرى الحرب البوسنوية مما استدعى ضرورة إعادة النظر فى الكتاب. ومن ثم رأيت أنه من الأفضل أن يتم نشر كتاب «الإعلان الإسلامى» منفصلا، وأن أعكف بعد ذلك على دراسة الأحداث التى جرت من الفترة المذكورة آنفا بحيث تنعكس نتائج هذه الدراسة فى كتابى عن البوسنة مستعينا بما تجمع لدى من الصحف الأجنبية والعربية ومن الكتب التى تناولت هذا الموضوع أثناء اقامتى فى لندن، وكذلك متابعتى لما يجرى فى البوسنة فى المرحلة الحالية بعد «اتفاقية دايتون».

أما بالنسبة لكتاب «الإعلان الإسلامى» فإن ما يعنينى أكثر من أى شىء آخر هو أن أزيل ما عراه من تشويه متعمد من قبل جهات مشبوهة، وأن أناقش التهم الموجهة إلى الكتاب وإلى مؤلفه، وأن أكشف عن الأهداف الكامنة وراء هذا التشويه، وعن سر الحملات الهجومية الى شُنّت عليهما مستعينا فى ذلك بشهادة نخبة من أبرز الباحثين والكتاب والصحفيين المنصفين.

بعد ذلك يستطيع القارئ أن يتناول هذا الكتاب متحررا من الأوهام والأفكار المسبقة

والأحكام الجاهزة التى صنعها له الآخرون لتضليله أو لصرفه نهائيا عن قراءة الكتاب. وعندما يتحرر عقل القارئ يستطيع أن يقرأ قراءة صحيحة وأن يكوّن لنفسه حكمه الخاص على الكتاب، ويتعرف على قيمته الحقيقية، كما يستطيع أن يستمتع - فى نفس الوقت - بقراءة نص صاغه مؤلفه بإيجاز مبدع وضمّنه أفكاراً جديدة مدعمة بمنطق قوى وتحليل ذكى.

لقد بذلت جهدى فى إضاءة هذا النص وفى إزالة ما علق به من لبس، وأرجو أن أكون قد وُفّقت فى تحقيق هذا الهدف، والله هو الموفق وهو الهادى إلى طريق الرشاد.

محمد يوسف عدس

الإسكندرية ٢٢ يونيه ١٩٩٦

على عزت بيجوفيتش: فكره ومواقفه

كان قدر «على عزت بيجوفيتش» منذ بداية النظام الشيوعى فى يوغسلافيا فى سنة ١٩٤٥ أن يتلقى تهما ملفقة وأن يعاقب عليها بالسجن. وكانت أول مرة يزج به فى السجن عندما كتب مقالا يرد فيه على الهجمات الظالمة التى شنها الشيوعيون على الإسلام والمسلمين فى بداية عهد «جوزيف بروزتيتو» فى إطار خطة للقضاء على الأديان وترسيخ العقيدة الماركسية.

واستمر الحال على هذا النحو حتى موت الرئيس تيتو وبداية ظهور القوميين الصرب ليهيمنوا على الحزب الشيوعى اليوغسلافى ويخططوا لإقامة صربيا الكبرى على انقاض الاتحاد اليوغسلافى المنهار.

شرعت آليات الدعاية الصربية تشن حملات موجهة ضد المسلمين فى يوغسلافيا وضد الإسلام بصفة عامة، لا من موقف «أيدولوجى» هذه المرة بل من موقف قومى عنصرى يهدف إلى استئصال المسلمين وتصفيتهم فكريا وجسديا، وكانت الشخصية المحورية التى دارت حولها الحملات الصربية هى شخصية «على عزت» فقد اتهمه الصرب بالدعوة إلى «الأصولية الإسلامية»(١) وبالتخطيط لإقامة دولة إسلامية فى البوسنة كنقطة انطلاق للسيطرة على يوغسلافيا وأسلمة البلقان ثم الانقضاض على أوروبا كلها. ولا أحد يفهم كيف يمكن لعلى عزت وشعبه الصغير الأعزل أن يقوم بهذه الأعمال الخارقة!!، ولكن عندما تكون الرسالة الإعلامية موجهة لجمهور جاهل متعصب قد تم برمجته بواسطة أجهزة إعلام تمرست بالتلاعب بعقول الجماهير، فإن مثل هذا الجمهور لا يتوقف ليسأل نفسه هذا السؤال المنطقى.

ولقد لاحظ الصحفى البريطانى «ميشاجلينى» هذه المفارقة وأدهشه إفراد على عزت

---

(١) يُستخدم اصطلاح «الأصولية» هنا بمفهومه الغربى ولكن لنا عليه تحفظ وتعليق سيتضح فيما بعد.

بكل هذا العداء والهجوم، فتناول هذه النقطة فى كتابه «سقوط يوغسلافيا»[٢] حيث قارن بين شخصيات رؤساء جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى قائلا:

«إنه لو صح اتهام على عزت بتهمة تنتمى إلى أكثر من عشرين سنة مضت لصح اتهام جميع رؤساء جمهوريات يوغسلافيا الحاليين بتهم أكثر بشاعة: فلقد كان بعضهم ستالينيا وبعضهم نازيا دمويا، وكان أحدهم مراهقا عابثا أما «سلوبودان ميلوسفيتش» (رئيس صربيا الحالى) فإن ميشاجلينى يخصه بوصف «المتعطش للدماء». . ثم يضيف: وكان هؤلاء جميعا من الرفقاء الكبار فى الحزب الشيوعى وقادته البارزين أما اليوم فهم الذين شرعوا يتقاتلون ويتصارعون فيما بينهم لتحطيم يوغسلافيا وتقسيمها فيما بينهم. ويمضى ميشاجلينى قائلا: أما على عزت فهو الرئيس الوحيد الذى لم يكن شيوعيا، وهو الرئيس الوحيد الذى يتمسك بالديمقراطية، وهو الذى يشرك معه فى مجلس رئاسة الحكومة البوسنوية قادة من صرب البوسنة وكرواتها، فقد آثر على عزت أن تكون حكومة ائتلافية من المسلمين والأرثوذكس والكاثوليك رغم أنه كان يستطيع أن يؤلف حكومته من أعضاء حزبه المسلم الذى فاز بالأغلبية المطلقة فى انتخابات حرة. ويؤكد «ميشاجلينى» أن على عزت كان هو الرئيس الوحيد الذى دافع بحماس ملحوظ- أثناء المفاوضات التى أجريت عام ١٩٩١- عن تحويل يوغسلافيا إلى «اتحاد كونفدرالى». . وكان اقتراحه هذا- بشهادة مجموعة الدول الأوروبية- هو الحل الوحيد لإخراج يوغسلافيا من كارثة الصدام المسلح والوصول بها إلى طريق السلام. إلا أن هذا الحل قد رفضه «ميلوسيفتش» بصلف فقد كان اهتمام هذا الدكتاتور الدموى مركزا حول فكرة إقامة «صربيا الكبرى» تحت ستار ما سماه بالاتحاد اليوغسلافى الجديد. ولم يحظ هذا الاقتراح بما يستحقه من تدعيم من جانب رئيسى كرواتيا وسلوفينيا لأنهما كانا يخططان مع أطراف أوربية أخرى للانفصال، فرارا من القبضة الدموية العنصرية للقوميين الصرب الذين كانوا يتهيأون للانقضاض على أشلاء يوغسلافيا ووضعها تحت الهيمنة الصربية المطلقة.

لقد اتصل «ميشاجلينى» بهؤلاء القادة جميعا وأدار معهم حوارات طويلة وتابع مواقفهم وأعمالهم وتعرف على أخلاقهم وشخصياتهم عن قرب وفحصهم بعين الصحفى الذكى المتمرس ومن ثم جاءت أحكامه عليهم مطابقة للحقيقة والواقع فهو يرى أن «على عزت» كان دائما ولا يزال يتميز بحسن نواياه تجاه الآخرين كما يتميز

---

(٢) انظر «ميشاجلينى» فى كتابه سقوط يوغسلافيا. .

GLENNY, MICHA. : The Fall of Yugoslavia ... London: Penguin Books, 1992. p 153

بانسانيته . وهى صفات لم يلمحها «ميشاجلينى» فى أى شخصية قيادية من زعماء يوغسلافيا .

ولكن تمضى الحملة الدعائية الصربية الشرسة فى تشويه الحقائق كاشفة عن أهدافها العدوانية البعيدة ؛ فقد كان الجيش الصربى قبل العدوان على البوسنة بعدة أشهر يردد أنشودة شعبية يتوعد فيها على عزت بالقتل ؛ حيث تقول الأنشودة : «سنذبحك يا على عندما تقوم الحرب كما ذبح ميلوس مراد» . فهم يشبهون على عزت بالسلطان العثمانى «مراد» الذى هزم الصرب فى معركة كسوفا ، وجاء ميلوس الصربى ينحنى أمام السلطان مسلما بالهزيمة ، فإذ به يغمد خنجره المسموم فى صدر السلطان مراد فيقتله غدرا وغيلة . (٣)

ولعلنا نستطيع أن نقترب من فهم شخصية على عزت الحقيقية إذا استطعنا أن نضع هذه الاتهامات «المقولبة» جانبا ، وإذا استطعنا أن نستبعد من أذهاننا تلك التعصبات المنكرة الموجهة ضد الاسلام والمسلمين ، ذلك لأن الرجل كان ضحية سوء فهم عميق بسبب هذا كله .

لقد طغت أنباء كارثة البوسنة فى الإعلام العالمى طوال أربعة أعوام مضت ، ومع ذلك فنادرا ما كنا نشاهد «على عزت» فى لقاء أو تصريح سواء فى الصحافة الغربية أو فى التلفاز ، فإذا ظهر على شاشة التلفاز فى نشرة الأخبار - لحظات خاطفة - نلمح إنسانا مثقلا كأنه يحمل على عاتقه جبلا من الهموم . ولكننا مع الوقت لا نملك إلا أن نعجب : كيف أنه لايزال قويا متماسكا لم يتحطم . فقد عاش الكوارث التى تنقض على شعبه وتمزق وطنه ، وهو نفسه كان محاصرا فى مدينة سراييفو . بمدفعية عصابات «الشتنك» الصربية وقناصتهم يحدقون بالمدينة على قمم الجبال المحيطة بها . وقد تحولت المدينة العريقة الجميلة - مع طول الحصار - إلى جحيم ؛ تقطعت فيها شرايين الحياة فلا طعام ولا ماء ولا كهرباء ولا دواء ، وتحول «استاد» سراييفو الذى احتضن الألعاب الأوليمبية الشتوية يوما ما إلى مقبرة كبرى تضم آلاف الضحايا من القصف العنيف المتواصل .

وكان على عزت يأمل أن ينهض المجتمع الدولى بواجبه فى إنقاذ شعبه من العدوان ، أو على الأقل يرفع عنه حظر التسلح المفروض عليه ، حتى يتمكن من الدفاع المشروع عن نفسه ، ولكن طال انتظاره ولم يتحرك المجتمع الدولى ولم يسمح له بالتسلح .

---

(٣) انظر صحيفة «أخبار المسلمين» الصادرة فى لندن ٢٦ نوفمبر ١٩٩٣م . "MUSLIM NEWS"

إن على عزت لم يعش فقط مأساة شعبه الدامية ولم تحاصره مشاعر الإحباط المتصل بسبب المواقف الدولية المتخاذلة فقط، وإنما تعرض بالإضافة الى كل هذا لمحاولات استهدفت تحطيم شخصيته وتمزيق نسيجه النفسي وسحق صلابته وشموخه واعتزازه بفكره ودينه وشعبه، وللأسف الشديد لم تكن تأتيه هذه المحاولات من قبل أعدائه الظاهرين من الصرب فحسب وإنما جاءته أيضا من خلال المفاوضات في أروقة قصر الأمم المتحدة في جنيف، وبواسطة خبراء في المكر السياسي والدبلوماسي من أمثال البريطانيين: «لورد كارنجتون» و«لورد أوين» وهم أناس جعلوا أكبر همهم أن يروا على عزت ينهار مستسلما لضغوطهم فيوقع على وثيقة نهايته ونهاية دولته وتحويل شعبه الى شراذم من اللاجئين المشردين.

كانت وسائل الإعلام الغربية- رغم تعاطفها الملحوظ مع مأساة البوسنة- تتخذ موقفا ثابتا لا تحيد عنه من على عزت بصفة خاصة، رغم أنه هو رئيس الدولة التى وقع عليها العدوان ومن ثم فهو صاحب القضية المركزية ولكن شاءت وسائل الاعلام أن يظل «على عزت« غائبا بصوته وصورته ورأيه تماما عن مجريات الأحداث، فإذا ذكر اسمه فإنما يذكر مجردا من لقبه الشرعى كرئيس لجمهورية البوسنة المنتخب من قبل الشعب. فهو فقط- عندهم مجرد زعيم مسلمى البوسنة.. أى مجرد قائد لطائفة من الطوائف الثلاث المتحاربة فى البوسنة.. وهذا هو الانطباع الذى أرادت وسائل الاعلام أن تثبته فى عقول المشاهدين عن شخصية «على عزت» وعن قضية بلاده وشعبه باعتبارها قضية حرب أهلية لا قضية عدوان خارجى علي شعب أعزل وتكتمل دهشتنا للموقف العجيب الذى اتخذته وسائل الإعلام هذه نفسها من الصربى المتمرد «رادوفان كراجيتش»، فقد دأبت وسائل الإعلام على إبرازه يوميا فى نشراتها الإخبارية لتسمع المشاهدين صوته وتريهم صورته معلقا مرة على الأحداث برأيه.. معتذرا أحيانا عن بعض التجاوزات الطفيفة التى يرتكبها بعض الجنود دون علم القادة الكبار كما يزعم..! مدافعا مرة ثالثة عن مليشياته العسكرية، مؤكدا أن لديه جنرالات على مستوى عال من الاخلاق والشرف!! متنصلا مرة أخرى من بعض الأحداث الدموية التى تستفز الرأى العام زاعما أنها من عمل المسلمين أنفسهم ليستدروا بذلك عطف العالم عليهم.. بل أكثر من هذا عقد معه بعض مندوبى التلفاز لقاءات مخططة وهو يتنقل كالطاووس فى أروقة الكنيسة الأرثوذكسية التى يعتز بها ويتحدث عن الآثار البديعة التى تحتويها.. أو يتحدث عن عراقة أصله ومجد أجداده.. أو يلقى بعض قصائده الرومانسية (التى لا يعرف أحد من أين أتى بها ومن ترجمها له إلى اللغة الإنجليزية!).. أو يتحدث عن الحقوق التاريخية للصرب فى أرض البوسنة.. ويردد

شعارات «الأصولية الاسلامية» والمسلمين الدخلاء الذين احتلوا البوسنة وطردوا منها الصرب– إلى آخره من هذه الخرافات والأكاذيب. ويلاحظ أن وسائل الإعلام كانت حريصة دائما على أن تخلع عليه لقب «الدكتور كراجيتش». . ولم تذكر لنا أنه لقب مزيف، فالرجل لم يحصل على درجة الدكتوراه وإنما هو طبيب أمراض نفسية كان ملحقا بفريق كرة القدم. . ولم تذكر لنا وسائل الإعلام أن «كراجيتش» هذا ليس مواطنا بسنويا أصيلا، وإنما هو صربى من جمهورية الجبل الأسود نزح منها الى سراييفو بحثا عن عمل مناسب لم يوفق فى الحصول عليه فى موطنه الأصلى [٤]. . ولم تذكر لنا وسائل الإعلام أنه مسئول عن الجرائم الوحشية التى ارتكبتها مليشياته ضد المدنيين المسلمين العزل فى أنحاء البوسنة. . ولم تذكر لنا أن وزير الخارجية الأمريكى السابق قد حدد اسمه مع مجموعة أخرى من مجرمى الحرب فى يوغسلافيا وطالب عام ١٩٩٢ بضرورة مثولهم أمام محكمة دولية لمحاكمتهم على جرائمهم التي تفتضح تفاصيلها البربرية يوما بعد يوم ويطارده الآن المجتمع الدولى فى محاولة للقبض عليه وتسليمه الى محكمة مجرمى الحرب فى لاهاى.

وقبل كل شىء لم تذكر لنا وسائل الإعلام شيئا عن سر جاذبية هذا السفاح العنصرى حتى يكون موضع اهتمامها البالغ فى كل مناسبة وبلا مناسبة! هنا يضع «مارك تومسون» يدنا على هذا السر حيث يرى أن هذا الدعىّ يفهم الرسالة التى يتطلبها الساسة الغربيون. وكان هو من جانبه حريصا على إبرازها والتأكيد عليها فى كل فرصة إعلامية متاحة:

«إن اتفاقية وقف إطلاق النار بين الأطراف المتحاربة فى البوسنة لا يحترمها أحد [٥] لأن الكراهية العرقية عميقة الجذور بين الطوائف البوسنوية. . لا تحاولوا التدخل فأنتم لا تستطيعون عمل أى شىء إزاء هذا الصراع العرقى الحتمى إلا أن تقفوا بعيدا عنه. . إن من يتورط فى هذا الصراع سيكون هدفاً للضرب من جميع الأطراف. . ولن يخرج أحد من هنا حيا». ويعلق (مارك تومسون) على ذلك بقوله: «كانت هذه الرسالة كالموسيقى الساحرة فى أذن الساسة الغربيين الذين لا يريدون التدخل على أية حال». [٦]

---

(٤) انظر مارك تومسون فى كتابه «بيت من ورق»

THOMPSON, MARK. A Paper House : The Ending of Yuguslavia. London: Vintage, 1992. p 331.

(٥) سجلت الأمم المتحدة أن جميع انتهاكات وقف إطلاق النار بين الصرب والمسلمين كانت تأتى من الجانب الصربى دائما.

(٦) انظر «مارك تومسون» المصدر السابق. ص ٣٣١.

لقد أدان الساسة الأوربيون بشدة الهجوم الصربى على سلوفينيا وكرواتيا وهددوا الصرب بالتدخل العسكرى إذا لم يوقفوا العدوان فأوقفوه. أما عندما أعلنت البوسنة استقلالها تلون موقف الغربيين بلون جديد. . فهم يبدون تعاطفهم مع مسلمى البوسنة الذى وقع عليهم العدوان الصربى من ناحية ولكنهم ينحون باللوم على الحكومة البوسنوية- من ناحية أخرى- لأنها جلبت على نفسها المشاكل. . وهم بذلك يبررون للرأى العام سبب نكوصهم عن التدخل لإنهاء العدوان. . ويقارن (مارك تومسون) هذا الموقف المخزى بموقف المحقق المتحيز الذى تسيطر عليه فكرة مسبقة عن أية امرأة سيئة الحظ تتعرض للاغتصاب؛ فهى فى نظره مذنبة بشكل أو بآخر وأنها هى التى جلبت مصيبتها على نفسها بنوع من الإهمال، فيما يعرف فى المصطلح القانونى «المشاركة بالإهمال». (٧)

وهكذا يتكشف سر التوافق بين السياسات الغربية تجاه البوسنة وبين مزاعم «كراجيتش» التى تروج لها وسائل الإعلام.

ويؤكد (مارك تومسون) رأيه فى كراجيتش فيقول: «إنه كذاب مريض بالكذب، ولكنه يرى فى نفسه مسيح الثورة الصربية القومية. . إنه لا يكن أى شعور بالحب أو الانتماء إلى البوسنة. . فهو لا يرى فيها سوى عقبة فى طريق تحقيق حلم صربيا الكبرى».

وتنبأ (مارك تومسون) فى أوائل التسعينات بأن هذا الرجل الشرير إذا أتيحت له الفرصة سوف يحيل البوسنة الجميلة إلى حطام وأنقاض ودخان وسيجعل من أشجارها الخضراء مجرد جذوع محترقة. (٨) وقد تحققت بالفعل توقعات (مارك تومسون).

كانت هذه الشخصيات السياسية هى النماذج السياسية النّكدة التى فرض على «على عزت» أن يتعامل معها. . وكانت هذه الظروف المأساوية كلها جديرة بأن تحطم أقوى الرجال ولكن على عزت ظل صامدا متماسكا متوازن العقل صحيح النفس. . وهو أمر يثير الدهشة ويبعث على التساؤل. ولكن تزول دهشتنا إذا حاولنا أن نتعمق فى سيرة حياة الرجل وفكره كما يتمثل فى كتاباته، وعلى الأخص كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» فهذا الكتاب يمدنا برؤية داخلية كاشفة لشخصية مؤلفه وسماته الفكرية والأخلاقية.

---

(٧) انظر نفس المصدر. ص ٣٢٦.

(٨) انظر «مارك تومسون» المصدر السابق ص ٣٣١

قضى على عزت فترات طويلة من حياته وراء قضبان السجون الشيوعية- كما سبق أن أشرنا- لمجرد أنه مسلم ملتزم متمسك بعقيدته يدافع عن الفكر الإسلامى فى مواجهة نظام استبدادى شمولى ملحد وأنه يدعو الى نظام ديمقراطى(٩) مخالفاً بذلك دكتاتورية الحزب الواحد. ولم يكن على عزت من النوع الذى يؤثر المهادنة والتخفى على حساب مبادئه أو حريته. بل فعل غيره أكثر من ذلك فأظهر الحماسة للماركسية حتى أصبح من قادة الحزب الشيوعى، ولكن ما أن انهارت قبضة النظام حتى انكشفت حقيقته فعاد الى طبيعته قوميا عدوانيا مثل الدكتاتور الصربى «سلوبودان ميلوسيفيتش» ولكن على عزت رجل من نسيج إنسانى مختلف. . فهو عاشق للحرية الأنسانية ويعتبرها أعظم هبة من الله بل يعتبرها أمانة من عند الله ومسئولية لا يمكن التفريط فيها. وسنرى أن فكرة الحرية هذه من المحاور الأساسية الهامة التى تدور عليها موضوعات كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب». وقد عالج هذه الفكرة فى أكثر من موضع بهذا الكتاب وانتهى من تحليلاته إلى أن النظم الشمولية يستحيل استمرارها فى الوجود لأنها تنظر الى الإنسان نظرة أحادية الجانب مقصورة على طبيعته المادية الحيوانية، فتصطدم بذلك بأعمق ما فى طبيعته وهو الجانب الروحى الإلهى فيه. وكأن على عزت فى ذلك الوقت المبكر كان يتنبأ بانهيار النظم الشيوعية قبل أن يبدأ الزلزال الذى اكتسحها، على الأقل بعشر سنوات. (١٠)

ويكشف على عزت عن طبيعة العلاقة التى تربط بين السلطة المستبدة وبين نوعين من الناس يسميهم «الأتباع والهراطقة»(١١) فهناك علاقة توافق وانسجام بين الأتباع الذين يعشقون التبعية والخضوع، وبين السلطة التى تحب أن يكون لها أتباع مخلصون لا يسألونها وإنما يصفقون لها ويستحسنون. . أما الهراطقة فإنه يتحدث عنهم كأنه يصف نفسه فيقول: «إنهم أناس أشقياء يتطلعون دائما إلى شيء جديد. . قليلا ما يتحدثون عن الخبز ولكنهم يتحدثون كثيرا عن الحرية. . يتحدثون عن السلام قليلا وعن الشخصية الإنسانية كثيرا. . إنهم يرفضون فكرة أن الملك يمنحهم أجورهم. . ويعتقدون أنهم هم الذين يطعمون الملك. . هؤلاء هم الهراطقة الخارجون. . لا

---

(٩) انظر «نويل مالكوم» Malcolm, Noel. Basnia: A Short hislary- London: Macmillan. 1994, p. 208.
حيث يقول: إن إحدى التهم الرئيسية التى وجهت إلى على عزت أنه يدعو إلى نظام ديمقراطى برلمانى على النسق الغربى.

(١٠) انظر على عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب - ترجمة محمد يوسف عدس. ميونخ: مؤسسة باڤاريا للنشر والكويت: مجلة النور، ١٩٩٤. ص ٢٤٥- ٢٤٩.

(١١) انظر نفس المصدر. ص ٢٤٩، ٢٥٠.

يحبون السلطة ولا تحبهم السلطة». ثم يمضى قائلا: «فى الأديان يوقر الإمَّعات الاشخاص والسلطات والأوثان. . أما عشاق الحرية فإنهم لا يمجدون إلا الله».

ولد عاشق الحرية على عزت بيجوفيتش سنة ١٩٢٥م فى مدينة «بوسانا كروبا» فى شمال غرب البوسنة وقد أصبحت هذه المنطقة أسيرة الاحتلال الصربى الآن. واسم عائلته «بيجوفيتش» معناه الحرفى «ابن عزت بك» وكلمة «بك» لقب شرفى موروث من الإمبراطورية العثمانية كان يمنح لمن قدم خدمة مرموقة للدولة. وعلى عزت من أسرة مسلمة عريقة فى تاريخ البوسنة، تعلم فى سراييفو والتحق بمدرسة تسمى «جمنازيوم» وهى مدرسة ثانوية كانت تتبنى منهجا أكاديميا على غرار المناهج الألمانية. . ويتميز النظام المدرسى فيها بالدقة والصرامة.

فى ذلك الوقت كانت البوسنة والهرسك جزءا من مملكة تحكمها أسرة ليبرالية. ولم يكن التعليم الدينى جزءا من المناهج المدرسية. وكان على عزت- وهو لايزال شابا ناشئا- واعيا بأهمية أن يتعرف على دينه ويقرأ فيه قراءة مستفيضة فاتفق هو وبعض زملائه فى المدرسة أن ينشئوا ناديا مدرسيا للمناقشات الدينية سموه «ملادى مسلمانى» أى «الشبان المسلمين». . وكثير من زملاء على عزت وأصدقائه ينتمون إلى هذه الفترة المبكرة من حياته.

تطورت جماعة «الشبان المسلمين» فيما بعد فلم تقتصر فى نشاطها على الاجتماعات والمناقشات وإنما امتدت إلى أعمال تعليمية وخيرية، وأنشئ بها قسم خاص بالفتيات المسلمات. واستطاعت هذه الجماعة- أثناء الحرب العالمية الثانية- أن تقدم خدمات فعالة فى مجال إيواء اللاجئين ورعاية اليتامى والتخفيف من ويلات الحرب. وإلى جانب هذه الأنشطة تضمنت برامج الجماعة برنامجا «لبناء الشخصية» وكانت عضوية الجماعة تجتذب طلابا من المدرسة الثانوية ومن جامعة سراييفو. ومن الثابت أن اتجاهات الجماعة وتطورها نحو التكامل والنضوج كانت نتيجة سعيها المستمر لتحسين نفسها، ومحاولة الاستفادة فى عملها بالمعرفة التى توصلت اليها من خلال تحليلاتها واجتهاداتها الخاصة، إلى جانب تأثرها بأفكار أخرى جاء بها بعض الطلاب البوسنويين الذين تعلموا فى جامعة الأزهر بالقاهرة، واتصلوا بمنظمات إسلامية هناك تعلموا منها أن الإسلام إيمان وعمل. . دين ودنيا. . وأنه أسلوب حياة بقدر ما هو طريقة فى التفكير. وسنجد هذه الأفكار تتطور عند «على عزت» فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» حيث يعالجها بمفهومه الخاص فى اطار فلسفى. (١٢)

---

(١٢) انظر المصدر السابق. ص ٢٨٧.

كانت مجموعة الشباب المتعلم «الدينامى» الملتزم بفكر الإسلام وأخلاقياته تحفزهم رغبة قوية لإيقاظ مجتمعهم وتخليص عقله من كثير من المعتقدات الخاطئة التى حسبت على الدين ولكنها لا تستند على أى أساس من القرآن أو السنة النبوية الصحيحة، وهى معتقدات سكت عنها رجال الدين الرسميون أو ساهموا فى ترويجها لقلة فقههم فى الدين. وبسبب ذلك ولأسباب أخرى تتعلق بعجزهم عن مواجهة تطورات الحياة الحديثة بالفهم والمعالجة المستنيرة، كانت صلة «على عزت» وصحبه بعلماء الدين الرسميين صلة محدودة يشوبها شىء من عدم الثقة.

ولكن تبين للشبان المسلمين فيما بعد أن بقاءهم واستمرار نشاطهم لن يتحقق إلا اذا كانت لهم مظلة رسمية تحميهم من مظنة أهل السوء والسلطان، فاقتربوا من «جمعية العلماء» وشجعهم على ذلك الشيخ «قاسم دوبراشا» (الذى توفى سنة ١٩٧٩). وظل «على عزت» محتفظا بعلاقة ذات طابع عملى «برجماتى» مع «جمعية العلماء» وإن كان لم يأمل من ورائها خيرا كثيرا، خاصة أن الدولة فى ظل النظام الشيوعى كانت تتدخل فى اختيار رئيس الجمعية وتراقب نشاطها وتضع لها أطراً حديدية لا تتخطاها. وقد انعكس هذا على فكر «على عزت» فى انتقاده لهذه المؤسسات حيث يقول: «إن كلا من الدين والثورة يولدان فى مخاض من الألم والمعاناة، وتدوم حياة الدين والثورة بدوام النضال والجهاد.. حتى إذا تحققا يبدأ الموت يتسرب اليهما.. ذلك لأن الدين والثورة- فى مرحلة تحققهما فى الواقع العملى- يقيمان لهذا الغرض مؤسسات.. وهذه المؤسسات هى نفسها التى تقضى عليهما فى نهاية الأمر.. فالمؤسسات الرسمية لاهى ثورية ولا هى دينية»(١٣) أما جماعة الشبان المسلمين فكانت منظمة عفوية حية ظلت على الأيام مجالا متطوراً يتدرب فيها أجيال من الشباب المسلم وينمون فى اطارها قدراتهم الفكرية والعملية.

التحق «على عزت» بكلية القانون فى جامعة سراييفو وظل مستمرا فى عضويته بلجنة الشبان المسلمين. وفى إبريل ١٩٤١م استولى جيش «هتلر» على يوغسلافيا فأحل فيها مكان الملكية جمهورية فاشية يحكمها الكروات. وكانت جمعية الشبان المسلمين تلتزم بسياسة خاصة تحرم على أعضائها الالتحاق بحركة «الأستاشا النازية الموالية لألمانيا الهتلرية». ولهذا السبب عندما تقدموا للسلطات الجديدة لتسجيل جمعيتهم رفضت السلطات طلبهم.

وتتضح حيوية هذه الجماعة فى اتجاهها نحو تعميق فكرها ورغبة أعضائها فى

(١٣) انظر نفس المصدر. ص ١١٤ - ١١٥.

الانفتاح على الفكر العالمى، فكانت لهم خطط منظمة لتعلم اللغات الأوربية، وقد اشتملت قراءاتهم على مؤلفات «محمد أسد» فى الإسلام باللغة الألمانية ضمن قراءات أخرى كثيرة. وكان من عادتهم أن يجتمعوا ليقرأوا معا ما يجرى على الساحة من تطورات فى أوضاع العالم الإسلامى. ومن خلال كتابات «محمد أسد» عرفوا كثيرا عن الحركة الإسلامية فى باكستان، وكانت تحمل فى طياتها أملا فى وقت من الأوقات، وقد أشار اليها «على عزت» فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» وتعرض لجوانبها السلبية بالنقد مفصلا فى كتابه «الإعلان الإسلامى». (١٤)

انتهت الحرب العالمية سنة ١٩٤٥ وخرج «جوزيف بروز تيتو» وحزبه من الحرب ليعلنوا سيطرتهم على السلطة، ويؤسسوا النظام الشيوعى فى يوغسلافيا. . وحوكم قادة المسلمين البارزون وأعدم كثير منهم. وتم اعتقال ألفين من أعضاء جماعة الشبان المسلمين فأرسل عدد منهم إلى معسكرات العمل الشاق دون محاكمة، وحوكم البعض الآخر محاكمات صورية ثم وضعوا فى السجون. واختفى بقية أعضاء الجماعة تحت الأرض حيث أصدروا صحيفة سرية سموها «مجاهد»، وسعى بعضهم للحصول على تدريبات عسكرية تحسبا أن تقوم السلطات الشيوعية بتصفيات جسدية جديدة بين المسلمين. وفى سنة ١٩٤٩م انقض عليهم «تيتو» مرة أخرى بقسوة أشد. وليس واضحا تماما إذا كان على عزت قد اعتقل فى التطهير الأول أو الثانى، ولكن الثابت أنه ظل مسجونا حتى أفرج عنه سنة ١٩٥٤م وكان عمره فى ذلك الوقت تسعة وعشرين عاما.

عمل على عزت بعد خروجه من السجن محاميا متخصصا فى القانون التجارى لدى إحدى الشركات. وفى غضون ذلك نشأت بينه وبين «حسين دوزو» صداقة. وكان «حسين دوزو» قد تخرج فى جامعة الأزهر وعينته الحكومة اليوغسلافية رئيسا لجمعية العلماء. وكان حريصا من جانبه على أن يقيم حوارا بين العلماء وبين المثقفين المسلمين. وقد أتيح لعلى عزت من خلال هذه العلاقة أن ينشر مقالاته فى مجلة الجمعية المسمَّاه «تاكڤين» خلال عقد الستينيات وأوائل عقد السبعينيات.

فتناول فى مقالاته موضوعات فى الثقافة والأخلاق والنهضة من منظور إسلامى، مستخدما فى مقالاته اسما مستعارا يتكون من ثلاثة حروف (ل. س. ب) وهى الحروف الأولى من أسماء أبنائه (ليلى وسابينا وبكر). وكان لهذا الانفتاح على جمعية العلماء أهمية كبرى. . فقد استطاع إيصال فكره إلى خمسين ألف مسلم من قراء المجلة.

---

(١٤) انظر على عزت «الإعلان الاسلامى» الجزء الخاص عن باكستان فى الفصل الثالث.

وفى سنة ١٩٨١م قام ابنه «بكر» بجمع سلسلة من مقالات أبيه فى كتيب وضع له عنوانا هو «الإعلان الإسلامى». وقد أثار هذا الكتاب ضجة إعلامية كبيرة فى يوغسلافيا، واستغل استغلالا ظالما ضد مؤلفه، وكان أداة اتخذها الصرب والكروات لتحريض الغرب عليه وعلى دولة البوسنة والهرسك بصفة عامة.

فى أوائل الثمانينات كان يسيطر على يوغسلافيا مجموعة من غلاة الشيوعيين والقوميين المتعصبين هالهم إحياء الفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية فى البوسنة، فأخذوا يهيئون المسرح لعمليات قمع تستهدف وقف نمو شعبية العقيدة الإسلامية بين السكان المسلمين.[١٥] فكان أول ما فعلوه أن جاءوا بشيوعى من بين المسلمين[١٦] هو «درويش شوسيتش» DARVIS SUSIC وشجعوه على الكتابة ضد الحركة الإسلامية فى صحيفة تُسمى OSLOBODJENJE فاخترع حكاية ملفقة زعم فيها أن بعضا من رجال الدين المسلمين كانوا يتعاونون مع عصابات الأستاشا (الكرواتية - الألمانية) النازية خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن صحيفة (الجمعية الإسلامية) "PREPOROD" ردت عليه بهجوم عنيف فنَّدت فيه قصته الملفقة فجاء شيوعيون آخرون لمناصرته وتعزيز الحملة الدعائية التى بدأها. من هؤلاء البروفسور «فؤاد محيتش» من جامعة سراييفو، ثم دخل المعركة كبيرهم «حمدى بوجيراتش» HAMDIJA POZDERAC وهو أعلى قيادة سياسية فى الحزب الشيوعى بالبوسنة فشن سلسلة من الهجمات الخطابية على ما سماه «الجامعة الإسلامية». وفى غضون هذه الحملة الإعلامية الشرسة بدأت الإجراءات القمعية ضد الأنشطة الإسلامية وانعقدت محكمة «سراييفو» سنة ١٩٨٣ لمحاكمة ثلاثة عشر من المثقفين الإسلاميين اتهموا جميعا بالتمرد والقيام بأعمال مضادة للثورة (والمقصود الشيوعية والنظام الشيوعى) وكان من بين المتهمين «على عزت» وثلاثة آخرون أعضاء فى جمعية الشبان المسلمين كانوا قد عارضوا هجوم الشيوعيين على الإسلام فى بداية الحكم الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية فلم ينس النظام هذا الموقف وساقه تهمة ضدهم فى المحاكمة، ذلك إلى جانب اتهامهم بإحياء نشاط منظمة إرهابية (يقصد جمعية الشبان المسلمين). أما على عزت فقد انفرد بتهمة أشد غلظة من الجميع: حيث وُجّهت إليه تهمة أنه دعا إلى اقامة نظام ديمقراطى على غرار الديمقراطية البرلمانية الغربية.[١٧] وكان أكبر دليل ضده هو نص كتاب «الإعلان

---

(١٥) انظر «نويل مالكوم» المصدر السابق. ص ٢٠٨.

(١٦) النسبة إلى الإسلام هنا مجرد صفة قومية لمسلمى البوسنة تمييزا لهم عن الكروات والصرب وإلا فإن المسلمين ينحدرون من عناصر سلافية شأنهم فى ذلك شأن الصرب والكروات.

(١٧) انظر «نويل مالكوم» المصدر السابق. ص ٢٠٨.

الإسلامى»، الذى وصفه وكيل النائب العام بأنه «منفستو إقامة دولة إسلامية فى البوسنة مقتصرة على المسلمين».

أجريت محاكمة صورية لعلى عزت وصحبه سنة ١٩٨٣، وسمح لأصدقاء المتهمين وأسرهم بحضور الجلسة الأولى ثم استكملت المحاكمة بعد ذلك فى جلسات سرية سريعة. ويذكر الذين حضروا الجلسة الأولى أن «على عزت» قام للدفاع عن نفسه، فلم ينكر أنه مؤلف كتاب «الإعلان الإسلامى» وأنه مسئول عن محتوياته، وأن الكتاب لا يوجد فيه إشارة واحدة إلى إقامة دولة عرقية مقصورة على المسلمين فى البوسنة كما يزعم ممثل الاتهام.. بل إن الكتاب ليس فيه أى ذكر للبوسنة أو يوغسلافيا على الإطلاق.[١٨] وأكد على عزت فى دفاعه أن الكتاب معنى بمشكلات المسلمين بصفة عامة وموجه إليهم.. وأنه من شأن المسلمين الخاص فى البلاد التى يشكلون فيها الأغلبية العظمى من السكان أن يختاروا- إذا شاءوا- نظاما إسلاميا للحكم، ولا يصح عندئذ أن تتدخل الدول الغربية ضد هذه الرغبة. غير أن المحكمة لم تلتفت إلى هذا الدفاع وأعلنت أحكامها (الجاهزة) بالسجن على المتهمين مددا تتراوح بين خمسة إلى خمس عشرة سنة، ثم خفضت إلى إحدى عشرة سنة بعد التظلم.

ولكن على عزت لم يقض هو وصحبه من هذه المدة سوى ستة أعوام فقط حيث استؤنفت المحاكمة مرة أخرى سنة ١٩٨٩ فبرأتهم المحكمة وردت إليهم اعتبارهم. كان ذلك بفضل جهود منظمة تسمى «منظمة التنسيق اليوغسلافى لحقوق الانسان»، فقد تبنت القضية وشكلت لجنة لتقصى الحقائق والاتصال بالشهود، وانتهت إلى وضع تقرير مفصل أثبتت فيه الحقائق التالية:

.. أولا- أن المحاكمة كانت محاكمة سياسية ملفقة تمت على نمط المحاكمات الستالينية المعروفة. ثانيا- أن تلفيق المحاكمة قد تم بواسطة عناصر كثيرة منها: التحقيق البوليسى بدلا من التحقيق القضائى، والحد من حقوق المتهمين فى الدفاع عن أنفسهم، وسرية المحاكمة، وتشويش الرأى العام بشكل تام، وتلفيق الأدلة، وتزوير شهادة الشهود الذين اعترفوا بأنهم لُقِّنوا أقوالا من قبل رجال الشرطة وتعرضوا لتهديدات إرهابية إذا لم يدلوا بهذه الأقوال أمام المحكمة. ثالثا: أن الذين كانوا وراء المحاكمة هم «برنكو ميكوليتش» و«حمدى بوچيراتش» وهما رأس النظام فى البوسنة فى ذلك الوقت، وكان المنظم المباشر لهذه المهزلة هو وزير الداخلية «دوشكو زجونيانين..».[١٩]

(١٨) انظر «نويل مالكولم» نفس المصدر ص ٢٠٨.

(١٩) انظر: محمد موفق الأرناؤوط فى كتابه «الاسلام فى يوغسلافيا..» ص ٢٣٨- ٢٣٩.

عندما خرج على عزت من السجن بدأت حياته صفحة جديدة ومرحلة جديدة من مراحل الجهاد. فقد كان دوره فى المرحلة السابقة هو دور المفكر الثائر . . رجل الأخلاق والمواقف وداعية التحرر والديمقراطية. ولكنه أصبح الآن أمام تغيرات جديدة تمر بوطنه وأمام مخاطر تلوح فى الأفق تستهدف شعبه، وكل ذلك يتطلب دورا قياديا سياسيا لمواجهة هذه المخاطر. لقد انهار الاتحاد السوفيتى واجتاح الزلزال أوربا الشرقية، وتحققت توقعات على عزت بانهيار النظم الماركسية الاستبدادية، وبرزت من أنقاض هذه النظم نزعات قومية شرسة وتعصبات عرقية عدوانية كانت مكبوتة، وظهر على مسرح السياسة اليوغسلافية شخصيات من كبار قادة الحزب الشيوعى فإذا بولائهم الحقيقى لا للمبادئ ولا ليوغسلافيا، ولكن لمصالحهم الخاصة ولانتماءاتهم القومية الضيقة وميولهم العنصرية «الفاشية»، قادة أساليبهم انتهازية غوغائية، تمرسوا خلال العمل الحزبى بالكذب والكيد والتآمر، يتحدثون أمام الجماهير عن نظافة اليد وأيديهم ملوثة بدماء الأبرياء، يظهرون البراءة على شاشات التلفاز وفى الخفاء يدبرون المجازر الوحشية ويغذون الحركات العنصرية والتطهير العرقى، وفى هذا المناخ المضطرب صعد نجم «سلوبودان ميلوسيفيتش» رئيسا لجمهورية صربيا ثم رئيسا للاتحاد اليوغسلافى الجديد المزعوم بعد انضمام جمهورية الجبل الأسود والاستيلاء على «كُوسوڤا» كان رؤساء جمهوريات يوغسلافيا (سابقا) يجلسون معا للتفاوض على شكل الاتحاد اليوغسلافى الجديد، ولكن كان بعضهم يضمر الانفصال مثل رئيسى كرواتيا وسلوفينيا، أما «ميلوسفيتش» فكان يتآمر ضد الجميع فى سبيل إقامة دولة صربيا الكبرى.

ويعزو «نويل مالكولم» انهيار يوغسلافيا إلى عاملين أساسيين: أولهما ظهور مثل هذه الشخصيات على المسرح السياسى، وثانيهما توجهات قادة الصرب وعلى رأسهم «ميلوسيفيتش» ففى غمار الأزمة الاقتصادية الخانقة التى أغرقت يوغسلافيا فى الديون الخارجية شرع الصرب يوجهون أموال الدولة لعلاج المشكلات الصناعية الخاصة بصربيا على حساب الجمهوريات الأخرى. وكانت هذه أكبر ضربة وجهت إلى يوغسلافيا وأدت إلى زعزعتها . . وأشعرت الجميع بالصورة التى سيكون عليها هذا الاتحاد إذا استمر قائما. فقد بدأت تظهر على السطح مخططات «صربيا الكبرى» تحت ستار «الاتحاد اليوغسلافى الجديد». (٢٠)

لم يكن إذن «المسلمون الأصوليون» هم الذين يهددون الوحدة فى يوغسلافيا، ولم

---

(٢٠) انظر: «نويل مالكولم» نفس المصدر.

يكن على عزت وكتابه المفترى عليه هما الخطر الذى يهدد يوغسلافيا، فالخطر كامن فى الأطماع القومية الصربية والرغبة المرضية فى القوة والسلطة والتوسع على حساب الآخرين كما يمثله رجل عنصرى مثل «ميلوسفيتش» وسنرى أن «على عزت» المتهم «بالأصولية والانفصالية» كان هو وحده الحريص على وحدة «يوغسلافيا» وقد سعى للحفاظ على إقامة وحدة فيها على أساس ديمقراطى جديد، وكان مخلصا فى حرصه وسعيه، وكان متحمسا لذلك بشهادة المراقبين المحايدين.[21] فعلى عزت كان يدرك بثاقب فكره أن هناك أسبابا موضوعية تجعله يخشى أن يؤدى تمزق يوغسلافيا إلى مصادمات قومية دامية بين الصرب والكروات مما سيكون له أخطر الأثر علي التركيبة القومية في البوسنة نفسها حيث يمتزج المسلمون والصرب والكروات فى نسيج دولة البوسنة ويتداخلون جميعا فى أنحائها. وأمام هذه المخاطر المتوقعة رأى على عزت ضرورة أن يكون للمسلمين دور فى محاولة إيقاف تدهور الأوضاع فى يوغسلافيا والعمل على منع التفجر العرقى من الانطلاق. ولم يكن يرى فى القيادات الشيوعية البوسنوية من هو مؤهل لقيادة المسلمين فى هذا الطريق لأنهم كانوا من نفس طينة زملائهم فى بلجراد وزغرب انتهازيين لاخلاق لهم. وكان المسلمون من ناحية أخرى يتطلعون إلى عهد جديد بعيدا عن هيمنة القيادات القديمة التى تعاونت مع النظام السابق وساهمت فى تجفيف منابع عقيدتهم وإلغاء هويتهم. فأنشأ على عزت «حزب العمل الديمقراطى» وخاض به انتخابات البوسنة فهزم به الحزب الشيوعى وغيره من الأحزاب الأخرى وتولى رئاسة جمهورية البوسنة فى نوفمبر ١٩٩٠م. فى ذلك الوقت كان التوتر قد بلغ أشده بين صربيا من ناحية وبين سلوفينيا وكرواتيا من ناحية أخرى لدرجة أن «ميلوسفيتش» كان قد فرض ضرائب على البضائع المستوردة من الجمهوريتين فى أكتوبر من نفس السنة. واستطاع ميلوسفيتش أن يضع يده على قدر كبير من ميزانية يوغسلافيا أنفقه على صربيا وحدها. وهكذا فى الوقت الذى كان يعلن فيه تمسكه بالاتحاد اليوغسلافى ويهدد كل من يعمل على تغيير صيغة هذا الاتحاد الى صيغة أخرى أضعف منه- فى نفس الوقت كان «ميلوسيفيتش» يؤكد بعمله تخريب دستور الاتحاد فقد ألغى مجلس «كوسوفا» كما ألغى تمثيلها فى مجلس جمهورية الاتحاد اليوغسلافى فى يونيه ١٩٩٠.[22] علما بأنه لم يكن فى ذلك الوقت يملك هذه الصلاحية، ولم يكن رئيسا لمجلس اتحاد الجمهوريات، بل أنه تحدى رئيس المجلس

---

(٢١) انظر «نويل مالكوم»، المصدر السابق ص ٢٢٤.

انظر أيضا «ميشا جليني» فى كتابه «سقوط يوغسلافيا»، ص ١٥٣.

(٢٢) انظر «نويل مالكوم» نفس المصدر ص ٢٢٤ كانت كوسوفا من قبل معتبرة وحدة سياسية مستقلة.

وأعلن فى ١٩ مارس ١٩٩١ أن صربيا لن تخضع بعد اليوم لمجلس اتحاد الجمهوريات، وذلك لأن رئيس الاتحاد رفض قبول طلبه بفرض حالة الطوارئ لقمع مظاهرات الطلبة التى خرجت تعارضه وتهتف بسقوطه. وقام «ميلوسيفيتش» بتصعيد تحدياته ضد كرواتيا والبوسنة حيث قام بتحريض «كرايينا» (وهى جيب صربى فى داخل كرواتيا) على التمرد ضد حكومة كرواتيا وأمدهم بالسلاح. وأوعز إلى عميله «رادوفان كراجيتش» فى البوسنة فأعلن حزبه فى مايو ١٩٩١ أن المناطق المجاورة لكرايينا فى شمال البوسنة سوف تنفصل عن البوسنة لتكوّن مع «كرايينا» جمهورية صربية مستقلة. [٢٣] وإذن فلم يكن «ميلوسفيتش» معنيا على الإطلاق بوحدة يوغسلافيا وإنما كان يخطط لإقامة صربيا الكبرى التى تهيمن على الجميع. وكانت هذه هى الأسباب الحقيقية وراء انهيار الوحدة اليوغسلافية وتخوف الجمهوريات الأخرى من البقاء فى اتِّحاد مزيف تحكمه دكتاتورية صربية.

ومن ثم وضع «على عزت» مشروعا بحل وسط ينهى الأزمة ويمنع تفجر الموقف المتدهور، واستطاع أن يقنع «جليجوروف» رئيس جمهورية مقدونيا بالوقوف الى جانب هذا المشروع حيث تقدما به فى اجتماع رؤساء جمهوريات يوغسلافيا سنة ١٩٩١م.

ويتضمن المشروع النقاط التالية:

أولا: أن تتحد جمهوريتا الصرب والجبل الأسود فى اتحاد فيدرالى خاص بهما.

ثانيا: أن تتحد جمهوريتا كرواتيا وسلوفينيا فى اتحاد كونفدرالى خاص بهما.

ثالثا: أن تتحد جمهوريتا البوسنة ومقدونيا فى إطار اتحادى يتفقان على صيغته فيما بعد.

رابعا: إيجاد إطار يوغسلافى موحد يضم هذه الاتحادات الثلاثة بحيث تتمتع جميع الجمهوريات فيه بالسيادة والاستقلال بطريقة متكافئة.

وبذلك يضمن المشروع بقاء الكيان اليوغسلافى ويحقق رغبات الجمهوريات فيه بدرجة من الاستقلال والسيادة ترضى الجميع.. وقد حظى هذا المشروع بتأييد المجموعة الأوربية.

ويعلق «ميشا جلينى» على هذا قائلا: «لقد كانت خطة على عزت- وجليجوروف هى الحل الوحيد لأزمة يوغسلافيا التى كان يمكن أن تنهى الصراع المشتعل بطريقة

---

(٢٣) نفس المصدر ص ٢٢٤.

سلمية، ولكن (ميلوسفيتش) رفضها بصلف من أول وهلة ودون أى مناقشة، كما أنها لم تحظ بما كانت تستحقه من اهتمام وتأييد من جانب (توجمان) رئيس كرواتيا ولا من جانب (كوتشان) رئيس سلوفينيا». [٢٤]

كانت أخطاء هؤلاء الرؤساء الثلاثة وطموحاتهم القومية بالاضافة الى تعطش «ميلوسفيتش» خاصة إلى سفك الدماء والهيمنة كانت هى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى انهيار يوغسلافيا سريعا، وهى التى جلبت الكارثة على البوسنة التى دفع المسلمون دون غيرهم ثمنها غاليا. ولم يكن على عزت بيجوفيتش (المسلم الأصولى!) هو السبب في كل هذه الكوارث والحروب ولكنه كان هو وشعبه ضحيتها البريئة. إن على عزت الذى يؤمن بإمكانية التعايش بين جميع المواطنين رغم اختلاف دياناتهم وقومياتهم فى إطار وحدة وطنية قائمة على الديمقراطية والحرية الدينية هو الذى رفض تقسيم البوسنة على أساس دينى عرقى، والجبابرة الذين اتهموه «بالاصولية»[٢٥] والتعصب الدينى والتطرف هم الذين حاولوا بعد ذلك إرغامه على قبول دولة مقتصرة على المسلمين مطهرة عرقيا ودينيا، لقد حارب الصرب المسلمين واستولوا على ٧٠٪ من أراضى البوسنة ودبروا لهم المذابح الوحشية ومعسكرات الإبادة والإغتصاب لكى يستأصلوا شأفتهم من البوسنة، فلما أخفقوا فى ذلك لجئوا إلى تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات على أساس دينى: دولة صربية أرثوذكسية، ودولة كرواتية كاثوليكية ودولة مسلمة، ولا ينبغى أن تغيب هذه الحقائق الدامغة عن نظرنا أبدا.

فى يوم ١٦ يونيه ١٩٩٣م.. فى قصر الأمم المتحدة بجنيف وجد رئيس صربيا ورئيس كرواتيا أن خطتهما فى تقسيم البوسنة قد تبنتها الأمم المتحدة فيما يعرف باسم

---

(٢٤) انظر «ميشا جلينى» المصدر السابق. ص ١٥٣.

(٢٥) «الأصولية» ترجمة للمصطلح الغربى fundamentalism ولهذا المصطلح تاريخه ومبرراته فى إطاره الثقافى الغربى وليس له ما يوازيه فى اطار الثقافة الاسلامية، وليس هنا مجال للتفصيل فى ذلك. وأكتفى بأن اشير الى ان الوصف بالأصولية يستدعى الى ذهن القارئ أو السامع النفور والكراهية. وقد اصبح هذا الوصف فى الآونة الأخيرة مقصورا على الاسلام والمسلمين بل تحول إلى قالب واسع مائع ليشمل كل ما له صفة إسلامية حتى ولو كان اسم شخص، فالشيوعيون الملحدون فى البوسنة يطلق عليهم الصرب صفة الأصوليين لمجرد أن لهم أسماء مسلمة، وتعليم أطفال المسلمين أداء الصلاة (أصولية إسلامية). ومما يؤسف له حقا أن كثرة من المثقفين أو أدعياء الثقافة. قد استعاروا هذا المصطلح وأقحموه إقحاما على اللغة والثقافة العربيتين فأصابوهما بالتلوث. ذلك لأن الأصل والأصالة والأصول وكل مشتقات الكلمة سواء في اللغة العربية الفصحى او العامية تشير إلى ما هو أصيل وجميل فى الفكر والأخلاق والسلوك. ولكن أبتليت مجتمعاتنا العربية بطائفة من الكتاب الحمقى او الحاقدين لا يعنيهم نقاء اللغة الشاعرة، ولا صفاء الهوية الثقافية لشعوبهم وانما يهرولون خلف كل بدعة غربية حتى ولو جاءت من صناديق القمامة.

(خطة فانس- أوين). وهى خطة تكافئ المعتدى على عدوانه، وتكرس الاستيلاء على الأرض بالقوة، وتقر عمليات اقتلاع السكان المسلمين من أراضيهم وممتلكاتهم وحقوقهم الإنسانية المشروعة. (٢٦) ولكن على عزت رفض هذا التقسيم وغادر الاجتماع متوجها إلى «كوبنهاجن» حيث كان وزراء خارجية المجموعة الأوربية مجتمعين فقال لهم: «الآن وأنتم لا تريدون أن تتحملوا مسئولية رد العدوان على دولة البوسنة فهل تسمح دولكم بأن نشترى السلاح للدفاع عما تبقى من أرض البوسنة؟» فنظر الوزراء بعضهم إلى بعض وقالوا كلاما خاليا من المعنى كعادة السياسيين المحترفين عندما يواجهون أسئلة محرجة. ثم خرج «نلز هلفج بيترس» وزير خارجية الدنمارك ورئيس الاجتماع ليفسر الموقف امام الصحفيين حيث قال لهم: «لقد قلنا لوفد حكومة البوسنة إننا نرى أن رفع الحظر على الأسلحة ليس حلا سليما.. ولكن ستعمل المجموعة الأوربية ما فى وسعها لمساعدة المسلمين للحصول على تسوية سلمية. (٢٧) ويعلق «إد فوليامى» على هذه العبارة المطاطة قائلا: «ولم يعرف أحد منا ماذا يعنى الوزير بالتسوية السلمية». (٢٨)

ولكن على عزت عرف حينذاك أنه لا أمل للمسلمين فى إنصاف يأتى من دول أوربا ولا من الأمم المتحدة التى تهيمن عليها هذه الدول، فاعتزل المفاوضات العقيمة وعاد إلى «سراييفو» وقد أيقن أن المسلمين يقفون وحدهم فى معركة حياة أو موت، وعليهم أن يشقوا طريقهم بما يتوافر لديهم من سلاح مهما كان قليلا. ويستمر مسلسل المأساة البوسنوية، ويبقى على عزت فى وسط العاصفة مع شعبه الأعزل صامدا مجاهدا محتسبا لا أمل له إلا فى وجه الله ونصر من عنده..

وليس هنا مجال للإفاضة فى تطورات الحرب البوسنوية فقد خصصنا لذلك كتابا منفصلا- كما سبق أن أشرنا - وإنما يعنينا هنا أن نؤكد على الحقائق التالية:

أولا: أنه قد بدا واضحا أن الافتراءات الموجهة إلى على عزت بالتعصب أو ما يسمونه «الأصولية الاسلامية» لا أساس لها من الصحة، وإنما يأتى التعصب والإرهاب والعنصرية من الأطراف الأخرى المعادية لتوجهات على عزت فى الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الشعوب.

---

(٢٦) انظر: «إدْ فوليامى» Ed Voliami. Seasons in hell..London : Simon and Schuster, 1994. p. 299.

(٢٧) انظر صحيفة الجارديان البريطانية "the Gurdian" عدد ٧ أغسطس ١٩٩٢

(٢٨) انظر: إد فوليامى، المصدر السابق ص ٣٠٠.

ثانيا: أن على عزت لا يسعى لإقامة دولة فى البوسنة مقتصرة على المسلمين خالية من الأديان والعناصر الأخرى من الصرب والكروات. فمثل هذه الدولة العنصرية لا وجود لها فى كتابه «الإعلان الإسلامى» كما زعموا، ولا فى برنامجه الحزبى الذى خاض به الانتخابات واختاره شعب البوسنة على أساس ما ورد فيه رئيسا لجمهورية البوسنة والهرسك، ولم يرد فى أى أثر فكرى آخر لعلى عزت شىء عن دولة إسلامية عرقية فى البوسنة.

ثالثا: أن على عزت كان ولايزال يساند بكل قوة إقامة دولة مدنية ديمقراطية فى البوسنة يشترك فيها عناصر السكان الثلاثة الرئيسة من المسلمين والصرب والكروات على قدم المساواة ويؤيده فى هذا الاتجاه كثرة من مفكرى صرب البوسنة وكرواتها ممن رفضوا الانضمام إلى المتمردين المنشقين من أصحاب النزعات العنصرية الدموية.

رابعا: أن الخطر على جمهوريات يوغسلافيا ليس كما يدَّعى الصرب آت من الإسلام والمسلمين، وإنما يكمن الخطر الحقيقى- لا على جمهوريات يوغسلافيا وحدها بل على منطقة البلقان كلها وعلى أوربا نفسها- يكمن الخطر فى تلك النزعات القومية العنصرية المتطرفة، وفى الأفكار الدموية التى تتغذى على الأساطير والأحقاد التى يحاول النفخ فيها وإحياءها قادة مرضى متعطشون للسيطرة وسفك الدماء أمثال «سلوبودان ميلوسيفيتش» رئيس جمهورية صربيا وعميليه: «رادوفان كراجيتش» الرئيس المزعوم لجمهورية صرب البوسنة، و«بانكو ملادتش» قائد العصابات الصربية، وهما الآن مطلوبان للمثول أمام محكمة جرائم الحرب الدولية لمحاكمتها.

الإعلان الإسلامى المفترى عليه

«الإعلان الإسلامى» - كما سبق أن أشرنا - هو الكتاب الذى أثار ضجة إعلامية كبرى فى يوغسلافيا ترددت صداها فى أنحاء أوربا كلها، وبسبب هذا الكتاب حوكم على عزت وزج به فى السجن، ورغم إعادة المحاكمة وسقوط التهم التى وجهت إلى على عزت إلا أن هذا الكتاب ظل سيفا مصلتا لا على رقبة مؤلفه فحسب بل على المسلمين فى البوسنة وعلى الإسلام كعقيدة وشريعة ونظام. واستمرت الحملات الإعلامية الصربية تتصاعد ضد على عزت لترسم له صورة مقولبة[29] باعتباره «آية الله الأبيض الملعـون»[30] الذى ظهر فى قلب أوربا المسيحية. ولترويج هذه الصورة أخذ الكتاب وأجريت على نصه تعديلات وأضيفت اليه عبارات وكلمات لم تكن موجودة فى الأصل. ثم وزع بحماس فى بلجراد وزغرب كدليل على دعوته للجهاد، والجهاد عندهم معناه إعلان «الحرب المقدسة على المسيحية». وتسرب الكتاب خارج يوغسلافيا فالتقطته جماعات نشطة، وقامت بترجمته إلى اللغات الأوربية المختلفة فى محاولة مشبوهة لإثارة جو من الذعر بين المسيحيين، حيث ربطت بين مؤلفه وبين بعض المراكز الإسلامية فى العالم وبخاصة إيران.[31] ويؤكد الصحفى البريطانى «إد فوليامى» أن الكتاب قد تعرض نصه للتعديل أو بالأحرى «التشويه».. والمقصود بهذا التشويه أن تتوافق محتويات الكتاب مع الصورة الإعلامية «المقولبة» عن صاحبه، وذلك لحبك

---

(٢٩) «القولبة» ترجمة للمصطلح الانجليزى Stereotyping وهى فى الأصل نوع من التصنيف ولكنه تصنيف سلبى بمعنى التأكيد فقط على الصفات السلبية.. ووظيفته أنه يساعد على تكوين صورة عقلية أو استثارة موقف عاطفى غير قابل للمراجعة عن شخص أو عرق أو قضية أو حادثة.. وتعتمد القولبة على تعميمات متحيزة غير دقيقة شديدة التبسيط والمبالغة وعادة ما تستخدمها وسائل الإعلام تستخف بها عقول الجماهير.

(٣٠) المقصود «آية الله الخمينى» فهو وإن كان رفيع المقام عند المسلمين الشيعة إلا أن صورته المقولبة فى الغرب بالغة البشاعة.

(٣١) انظر «إد ڤوليامى» المصدر السابق. ص ٦٧.

سيناريو التآمر الإسلامى على الغرب المسيحى . وكانت هذه أول مرة أصادف فيها خلال قراءاتى كاتبا غربيا يشير إلى ما لحق بكتاب «الإعلان الإسلامى» من تحريف . ثم ازداد يقينى بمسألة التحريف بعد الاطّلاع على شواهد أخرى : فقد أشار «هـ . ت . نوريس» فى كتابه «الإسلام فى البلقان» إلى أن الكتاب الذى أطلع عليه فى لغته الأصلية يبلغ نحو خمسين صفحة ، بينما تقترب نسخ أخرى من ثمانين صفحة . (٣٢)

ولقد أتيحت لى فرصة أن أطلع على نسخة من الطبعة الإنجليزية المحرفة التى تتداولها بعض الجماعات فى لندن ووجدت أنها مزودة بمقدمة تنطوى على أفكار مسمومة وإيحاءات خطيرة .

ولم يشأ صاحب المقدمة أن يعلن عن أسمه . والنسخة نفسها خالية من بيانات النشر ، فاسم الناشر مجهول وكذا سنة النشر ومكانه ، ومثل هذه الكتب الغفل التى تظهر فى الأسواق بين حين وآخر تذكرنا بالمطبوعات التى تروجها أجهزة المخابرات لإشاعة أفكار أو معلومات كاذبة لأغراض دعائية معينة .

تقول المقدمة : «من الواضح أن مهمة المسلمين المقدسة كما يراها على عزت هى تطبيق الموقف الإسلامى على العالم . . . » وفى موقع آخر من المقدمة نقرأ : ولا ننسى أن الرسالة البليغة للخومينى كانت «لا غرب ولا شرق . . الإسلام هو الحق» . (٣٣) ويمضى صاحب المقدمة المجهول فيعلق قائلا : «وكانت هذه الفكرة هى التى عبر عنها على عزت فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» ، ثم ترجمها بلغة سياسية عملية فى كتابه «الإعلان الإسلامى» وذلك بقصد إقامة الدولة الإسلامية والتوسع فيها لتحقيق طوبيا على كوكب الأرض " . ثم ينتقل الكاتب المجهول فى مقدمته لتوجيه اللوم إلى الدول الكبرى التى اعترفت بدولة البوسنة ومكنتها- على حد قوله- من الانضمام إلى الأمم المتحدة فيقول : «فى الوقت الذى تكسب فيه دولة البوسنة والهرسك الاعتراف الدولى لايزال يقف على رأسها (زعيم مسلم) هو على عزت بيجوفيتش الذى استطاع أن يحصل على دعم أكبر القوى العالمية المؤثرة . . هذه القوى هى نفسها التى يصفها على عزت فى كتابه بأنها «قوى الوثنية الكبرى فى العالم» . وأخيراً تختم المقدمة بما

---

(٣٢) انظر هـ . ت نوريس . Norris, H. T. Islam in the Balkans. London: Hurst,1993. p256.

(٣٣) لاحظ لعبة القولبة بذكر اسم الخومينى ـ أما الشعار فقد كانت تردده الجماهير الإيرانية فى مستهل الثورة الإسلامية . وهو عكس للشعار الذى صحب التوسع الغربى نحو الشرق واستعباده وكان الشعار West (and the rest) والمقصود أن السيادة للغرب وحضارته أما الثقافات الأخرى فهى متخلفة ولتذهب الى الجحيم .

يشبه قرع الطبول فى نهاية سيمفونية عنيفة فتقول محذرة: «إنه لمن التهاون المفرط وعدم الاكتراث بالمسئولية أن تقرأ هذا (المنفستو الإسلامى) كنوع من القصص الخيالى!» ولا ينسى الكاتب الذكى فى ثنايا مقدمته أن يذكرنا بأن المؤلف (يقصد على عزت) لم يتراجع عن المعتقدات التى ضمنها فى كتاب «الإعلان الإسلامى»، وذلك لكى يغلق الطريق تماما على أى فكرة قد تخطر على بال القارئ بأن الرجل ربما كان هكذا فى السبعينيات ولعله تاب الآن ونحن فى التسعينيات . . !

وهكذا رأينا نصا يُحرّف فى بلجراد ثم يُفسَّر فى لندن بمعرفة كاتب مجهول، وذلك لكى يركب صاحبه على قالب «خُمينى»(٣٤) يستنكره الفكر الغربى ويدينه بالعداء والعدوانية تجاه الحضارة الغربية.

ويصف الكتاب بأنه «المنفستو الإسلامى» ليذكر القراء بشىء آخر كريه عندهم وهو «المنفستو الشيوعى» والدلالة هنا واضحة . .

ويمضى الكاتب المجهول فيسطح الأفكار الثرية المبدعة التى عالجها على عزت فى كتابه الفذ «الإسلام بين الشرق والغرب» ويختزلها إلى شعار كانت تردده الجماهير فى بداية الثورة الإسلامية فى إيران، ولا شك أن إقحام هذا الكتاب بالذات فى غير سياقه يؤكد هدف التشويه المتعمد للكتاب فى ذهن القارىء. وينسب الكاتب الكذوب إلى على عزت أنه «يهدف إلى تطبيق الموقف الإسلامى على العالم» والتعبير فيه غموض ولعله يقصد قهر العالم على تبنى الأيديولوجيه الإسلامية مثلما حاول الغرب فرض ثقافته وتدمير ثقافات الشعوب فى العالم الثالث. ولكن شيئا من هذا لم يرد فى كتاب «الإعلان الإسلامى» ولا فى كتاب آخر لعلى عزت.

وأخيرا تنسب المقدمة إلى على عزت أنه وصف القوى العالمية الكبرى بأنها قوى الوثنية ولكن هذا الوصف أيضا لم يرد فى «الإعلان الإسلامى» ولا فى أى أثر فكرى آخر لعلى عزت . . ! وهكذا يتضح الهدف الخبيث من المقدمة المشبوهة للكاتب المجهول.

---

(٣٤) أغلب اعتقادى أن دوائر غربية معينة لا تستطيع استساغة كتابات على عزت عن الإسلام لأنه بمنطقه القوى استطاع ان يرتقى بالفكرة الاسلامية وبالنظام الإسلامى فوق الأيديولوجيات والأنظمة الغربية، فى حين أن هذه الدوائر تحب ان تحتفظ بنظرة هابطة عن الإسلام معادية له. وتأتى المفارقة هنا: فالذى يؤكد لها هذه النظرة الهابطة تروج له بضاعته وتتكلف فى حمايته كل مشقة وعنت كما تفعل مع سلمان رشدى، الذى تتسابق الحكومات والمنظمات الغربية فى احتضانه ويتظاهر رؤساء الدول بتكريمه بدعوى الدفاع عن حرية الفكر، والجميع يعلمون انه أداة خسيسة لتحقير الإسلام والمسلمين أما على عزت الذى ينصف الإسلام ويعلى من قدره بين الأفكار العالمية. فهو فى نظرهم - الخمينى الأبيض الملعون فى قلب أوربا المسيحية!.

فماذا يقول الكُتّاب والمفكرون الغربيون المنصفون عن كتاب «الإعلان الإسلامى»؟

يقول «هارى ثيرلول نوريس» الأستاذ بجامعة لندن: «إن هذا الكتاب أبعد ما يكون عن الأصولية فهو يحدد موقف المسلمين من العالم المسيحى تحديدا منطقيا واضحا حيث يقول على عزت:

نحن بالنسبة للمسيحية نفرق بين تعاليم المسيح وبين الكنيسة . . أما تعاليم المسيح فهى وحى من الله لَحقَ به تحريف فى بعض مواضعه، وأما الكنيسة- وقد أصبحت مؤسسة قائمة على نظام كهنوتى هرمى ذى مراتب ودرجات- فقد أصبحت بتنظيمها وسياساتها وثرواتها ومصالحها لا ضد الاسلام فحسب بل ضد المسيح نفسه . . وإن أى شخص يراد منه أن يحدد موقفه تجاه المسيحية فمن حقه أن يسأل: هل المقصود بالسؤال تعاليم المسيح أم محاكم التفتيش؟ ذلك لأن الكنيسة خلال تاريخها كانت تتأرجح دائما بين هذين القطبين . . فكلما اقتربت من التعبير عن تعاليم الإنجيل الأخلاقية كلما كانت بعيدة عن محاكم التفتيش . . ومن ثم أقرب إلى الإسلام . . وإننا نقدر الاتجاهات الجديدة التى أعلنها مؤخرا مؤتمر «الفاتيكان حيث نرى فيها اقترابا من المعتقدات المسيحية الأصيلة . . ومن الممكن- إذا أراد المسيحيون- أن يشهد المستقبل فرصة للتفاهم والتعاون بين الديانتين العظيمتين لصالح الشعوب ولصالح الإنسانية بصفة عامة خلافا لما كان يحدث فى الماضى من معارك بدافع من التعصب والصراع الأحمق» . [٣٥]

أما «نويل مالكوم»[٣٦] فقد خصص عددا من الصفحات فى كتابه (البوسنة: تاريخ موجز) لعرض وتحليل كتاب الإعلان الإسلامى دحض فيه الاتهامات الموجهة إليه بمنطق قوى واضح حيث يقول:

«إن هذا الكتاب بحث عام فى السياسة والإسلام، يتجه إلى العالم الإسلامى بصفة عامة فليس مخصصا للبوسنة وليس فيه أى ذكر لها على الإطلاق . . ويبدأ على عزت بعنصرين أساسيين هما المجتمع الإسلامى والحكومة الإسلامية . . وهو يؤكد أنه لا يمكن إقامة حكم إسلامى إلا ببناء مجتمع إسلامى كأساس يقوم عليه هذا الحكم . . وهذا المجتمع بدوره لا يمكن أن يتوافر إلا إذا كانت الأغلبية المطلقة من السكان مسلمين مخلصين لإسلامهم ممارسين لشعائره ملتزمين بأخلاقياته» وبدون هذه الأغلبية يتقلص النظام الإسلامى إلى مجرد قوة أو سلطة عارية . . ومن السهل حينئذ أن يتحول إلى نظام استبدادى ويعلق «مالكوم» على ذلك قائلا: «إن هذا الشرط يلغى

(٣٥) انظر هـ. ت. نوريس، المصدر السابق، ص ٢٥٦

(٣٦) انظر «نويل مالكوم» فى كتابه عن البوسنة ص ٢٢٠ إلى ص ٢٢٣

تماما فكرة إقامة حكومة إسلامية فى البوسنة حيث أن المسلمين فيها لا يشكلون الأغلبية بل هم أقلية (٤٥٪ من السكان)». ثم يمضى «مالكوم» قائلا: «إن القضايا التى يناقشها على عزت فى معظم الكتاب تتعلق بطبيعة النظام السياسى الاسلامى ولا تنطبق على حالة البوسنة.. وعندما يقول على عزت مثلا: «لا يوجد سلام ولا تعايش بين العقيدة الإسلامية وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللا إسلامية (وهى عبارة طالما اقتبسها الصربيون فى دعايتهم السياسية المضادة) عندما يقول هذا فإنه يشير إلى دول بها مجتمع إسلامى.. وحجته أن هذا المجتمع لن يقبل أن تُفرض عليه مؤسسات «ضد إسلامية».. ثم يمضى قائلا: «ولا يكاد يجد القارئ فى هذا الكتاب شيئا ينطبق على الوضع السياسى للبوسنة سوى فقرة واحدة هى: «إن الأقليات المسلمة فى مجتمعات غير إسلامية- طالما أنهم يتمتعون بالحرية الدينية وبالحياة والنمو الطبيعيين- فإنهم لابد أن يكونوا مخلصين ملتزمين بتنفيذ واجباتهم تجاه هذه المجتمعات، إلا فى حالة الإساءة إلى الإسلام والمسلمين».

وينتقل «مالكوم» ليناقش تهمة «الأصولية» فيقول: «إن بعض العبارات التى سيقت فى هذا الكتاب ووصفت بأنها (أصولية) سنجد أنها عبارات تقليدية ثابتة فى العقيدة الإسلامية لا يمكن لمسلم مخلص لدينه أن ينكرها».. فقد كتب على عزت: «لابد للدولة الإسلامية أن تحرّم الخمر والدعارة والأباحية» وحجته فى هذا أن الاسلام ليس مجرد مجموعة من المعتقدات الدينية الخاصة ولكنه طريقة حياة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية.. ثم إنه يؤكد على أن الأخوّة بين المؤمنين بالعقيدة الإسلامية (أو الأمة) تتجاوز الحدود القومية.. وليس فى هذا كله ما يبرر الوصف بالأصولية.. بل إن مصطلح (الأصولية) نفسه مصطلح مائع وانطباعى (سهل القولبة).. ولا يستخدمه أساتذة الدراسات الإسلامية الذين يعنيهم أن يفرقوا بين أنواع من الحركات آلاسلامية التى تتدرّج فى موقفها بين المحافظة والاعتدال والتطرف والعداء للحداثة..[٣٧] ولكننا نجد السياسيين والصحفيين يستخدمون (الأصولية) لتجمع عددا من الصفات من بينها الجمود والتطرف. أما الزعم بأن إقامة السلطة الإسلامية كغاية يبرر استخدام أى وسيلة ممكنة[٣٨] فإن على عزت يرفض بوضوح تام هذا الاعتقاد.. بل يندد بفكرة الاستيلاء

---

(٣٧) انظر «جون إسبوزيتو»

Esposito, John L. The Islamic threat: Myth or reality?- New York : Oxford University Press,1992. pp.203-212.

هذا المؤلف نموذج للأكاديمى الذى يشير إليه «مالكوم» وقد عالج هذا التنوع فى فكر الحركات الاسلامية باستفاضة فى كتابة وعلى الأخص فى الصفحات المذكورة.

(٣٨) انظر رأى على عزت فى هذه النقطة فى كتابه «الإعلان الاسلامى» تحت عنوان: «الغاية لا تبرر الوسيلة» حيث يهاجم الوسائل المكيافيلية هجوما كاسحا.

على السلطة بالقوة بحجة بناء المجتمع الإسلامى من فوق . . وحجته الأساسية هى أن المجتمع الإسلامى لا يمكن بناؤه إلا فى مجتمع غالبيته العظمى من المسلمين وأن هذا البناء لا يتم إلا من خلال عملية طويلة من التربية الدينية والاقتناع الأخلاقى» ويمضى (مالكوم) فى تبديد شبهة الأصولية عن فكر على عزت فيقول: «وتطلق الأصولية بطريقة مائعة على فكر على عزت بأنه شديد العداء للثقافة والنظم السياسية الغربية . . وذلك بسبب انتقاده لأسلوب العلْمنة المرتجلة والمتعسفة لتركيا فى عهد كمال أتاتورك . . وهو أسلوب تبناه نظام كمال أتاتورك على أساس (أن كل ما هو إسلامى فهو رجعى متخلف ثقافيا، وبدائى) . . وبسبب تنديده بأولئك الذين يدعون أنفسهم بالتقدميين المتغربين ودعاة الحداثة الذين يطبقون سياسة مشابهة لسياسة كمال أتاتورك فى بلاد أخرى بالعالم الإسلامى . . ويرفض مالكوم أن يكون هذا النقد من جانب على عزت مبررا لاتهامه بالأصولية . . ذلك لأن موقف على عزت العام على حد قول «مالكوم» لا ينطوى بالتأكيد على رفض للحضارة الغربية حيث يؤكد «أن الإسلام من بدايته قد أخذ بدون تعصب العلوم وجملة المعارف الإنسانية التى ورثها من الحضارات السابقة . . ونحن لا نرى لماذا يتخذ الإسلام موقفا مختلفا من إنجازات الحضارة الأوربية الأمريكية التى يتصل بها اتصالا وثيقا» .

ويلفت «مالكوم» نظرنا فى دفاعه عن فكر على عزت إلى معالجاته لهذه القضايا فى مصادر أخرى حيث يقول: «إن هذه القضايا قد قام على عزت بمعالجتها معالجة أكمل فى كتاب أهم هو كتاب الإسلام بين الشرق والغرب» وهو الكتاب الذى حاول فيه أن يقدم الإسلام كنوع من مركّب روحى وفكرى لا يتجافى مع قيم الحضارة والأدب الغربيين . . ووصف المسيحية بأنها وحدة بين دين عظيم وأخلاق عظيمة . . ويحتوى على جزء خاص يمجد الفلسفة الأنجلوسكسونية والثقافة الأنجلوسكسونية وكذلك تقاليد الاشتراكية الديمقراطية[٣٩] وينتهى «نويل مالكوم» بحكمه على فكر على عزت حيث يقول بكل وضوح: «ولا يمكن لأصولى أن يكتب مثل هذا الكلام» .

إن الحملة الإعلامية على كتاب «الإعلان الإسلامى» وصاحبه قد استخدمت فيها الأساليب الدعائية الحديثة بذكاء ماكر وعلى نطاق واسع لتشويه قضية البوسنة ثم للانقضاض على المسلمين لإبادتهم بعد أن يكون المناخ فى المنطقة وفى أوربا كلها قد تشيع بالخوف والضغينة والعداء، حتى لا يتعاطف أحد مع الضحية عند ذبحها أو يهب

---

(٣٩) انظر هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب الاسلام بين الشرق والغرب لعلى عزت عن المسيحية: ص ٢٨٩، وعن الفكر الأنجلوسكسونى وعن الديمقراطية الاشتراكية انظر الفصل الحادى عشر «الطريق الثالث خارج الاسلام» من ص ٣٧١ الى ٣٨٩.

لنجدتها . . وهذا ما حدث بالفعل . . بل رأينا متطوعين من روسيا وغيرها من دول أوربا الشرقية التحقوا بقوات الشتنك الصربية الإرهابية للمشاركة فى استئصال المسلمين .

لقد أشيع مناخ عام أحكمت حلقاته ضد الكتاب وصاحبه وضد الإسلام والمسلمين . . وأصبح من العسير على أكثر الناس إنصافا أن يحاول التصدى لهذا التيار الإعلامى الكاسح وأن يكشف عن أوجه الشطط والزيف فيه . وقد عرضنا- فيما سبق- لبعض المحاولات التى قام بها أكاديميون وصحفيون أجهدوا أنفسهم بحثا عن الحقيقة وسط ركام الأكاذيب . ورأينا كيف أن الدكتور «نويل مالكوم» قد اعترف فى مقدمة كتابه عن البوسنة بمدى الصعوبة التى واجهته وهويشق طريقه بحثا عن الحقيقة .(٤٠) فى قضية البوسنة .

ولعل أخطر ما فى «الصور المقولبة» أنها تتسلل إلى أقلام الكتّاب وإلى عقولهم اللاواعية بطريقة تلقائية نتيجة تشبع المناخ الفكرى بها . . فهذا مثلا «ميشاجلينى» ينصف على عزت لأنه التقى به وتعرّف عليه عن قرب وتابع مواقفه وتصريحاته فلم يأخذ عليه شيئا يشينه بل أثنى على استقامة شخصيته وحسن طباعه وأخلاقه وهى خصال يندر توافرها فى رجال السياسة . ولكنه وهو فى سياق عرضه لاتهامات الصرب والكروات لعلى عزت بالتخطيط لإقامة دولة إسلامية فى البوسنة- ذكر أن على عزت قد بيّن خطوط بناء هذه الدولة الإسلامية فى كتابه دون أن يوضح- كما فعل غيره من الباحثين المدققين أن الأمر لا يتعلق بالبوسنة ، بل اكتفى بتبرئة على عزت من (الأصولية) على أساس أن هذا الوضع شىء مضى من زمن بعيد وأن الرجل قد تخلى عن أصوليته(٤١) على حد زعمه .

ولا شك أن قوة تأثير الصورة المقولبة عن الإسلام والمسلمين تستند إلى الخلفية الثقافية الشائعة فى وسط ما . وهذه الخلفية متوافرة فى العالم الغربى المسيحى ولها جذورها التاريخية المعروفة ، وقد أشار «إدوارد سعيد» فى كتابه عن «الاستشراق»(٤٢) إلى عشرات الألوف من الكتب التى ألّفت فى الغرب على مدى القرون حتى اليوم تؤكد هذه النزعات المعادية للإسلام والمسلمين . ولكن ماهو شأن العرب والمسلمين الذين يفترض فيهم أنهم ينتمون إلى ثقافة مختلفة ، أقل ما توصف به أنها غير معادية

---

(٤٠) انظر «نويل مالكوم» المصدر السابق . المقدمة .

(٤١) انظر «ميشا جلينى» سقوط يوغسلافيا ، ص ١٥٣

Glenny, misha- The Fall of Yugoslavia.. London" Panguin Books,1992

(٤٢) أنظر ادوارد سعيد Said, Edward. Orientalisn. London: Routledge kegan Paul,1978.

للإسلام والمسلمين. ألم يكن من واجبهم أن يتحروا حقيقة هذه الصور المقولبة قبل أن تنفذ إلى وسائل إعلامهم وتتردد فيها.. ؟ الواقع يؤكد أن هذا التحرى لم يحدث.. بل إن نفرا من الكتاب والمثقفين العرب تبنوا الموقف الغربى المعادى للإسلام والمسلمين فشاعت على أقلامهم تهمة «الأصولية» التى أخذوا يلصقونها بكل حركة أو فكر إسلامى باعتباره تطرفا وتعصبا وإرهابا أو مساندا للإرهاب. وهم بهذا الموقف إنما يمثلون غلاة المتعصبين من المفكرين الغربيين، غير ملتفتين إلى وجود تيار آخر من المفكرين والباحثين الغربيين المنصفين، لهم رؤية أخرى فيها تفصيل واعتدال وإنصاف تستند إلى التحليل المنطقى للواقع ولا تنجرف مع التعصبات والأفكار المسبقة، والتشويه المتعمد للحقائق، وقد ذكرنا أمثلة على هذا التيار فى كتابات: «جون ل. إسبوزيتو»، «نويل مالكوم»، «ميشاجلينى»، «هـ. ت. نوريس» و«توماس أرنولد». فهؤلاء مفكرون احترموا الحقيقة واحترموا أنفسهم واتخذوا الموقف الذى يمليه عليهم الضمير العلمى رغم التيارات المضادة ذات القوة والسلطان فى بيئتهم الفكرية.

ومهما يكن الأمر فإن السؤال يبقى: كيف تسللت «الصور المقولبة» عن كتاب «الإعلان الإسلامى» وعن مؤلفه المفترى عليهما إلى الإعلام العربى؟.

إن أول صحيفة عربية- فيما أعلم- قد تعرضت لكتاب الإعلان الإسلامى كانت صحيفة «الحياة» التى تصدر فى لندن. فقد نشرت هذه الصحيفة فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ ملخصا للكتاب من إعداد «جميل روفائيل» مندوب «الحياة» فى بلجراد، تحت عنوان: «البيان الإسلامى.،.. نهج على عزت بيجوفيتش فى إقامة الدولة الاسلامية الموحدة». (٤٣) ومن الواضح أن هذا الملخص يعكس فهم «بلجراد» للنص.. وبه أخطاء فكرية قد ترجع الى ضعف الترجمة أو إلى الاقتباس المباشر من تفسيرات النص المحرف الذى روّج له الصربيون فى عاصمتهم «بلجراد».. ولا أظن أن المندوب الذى ترجم ولا المحرر الذى تناول النص قد كلفا نفسيهما بأى بحث أو جهد للتحقق من صحة النص ونسبته إلى صاحبه.. ولعل هذه كانت البداية الخاطئة التى قُدم بها كتاب «الإعلان الإسلامى» إلى الصحافة العربية.. ومنه تسربت «الصورة المقولبة» عن على عزت وكتاباته بصفة عامة.. فما أن يرد ذكر اسمه حتى تلحق به لازمة محتمة «الدولة الاسلامية الموحدة» سواء بمناسبة أو بغير مناسبة.

---

(٤٣) لاحظ أن عبارة «الدولة الاسلامية الموحدة» منقولة بالحرف من حديث الدكتور «ميرولوب إيڤتتش الصربى المتعصب فى مقابلة صحفية نشرتها مجلة «دوجا» الصربية الصادرة فى بلجراد، عدد ٩ فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ علما بأن هذه العبارة بنصها أو بمعناها لم ترد فى كتاب «الإعلان الإسلامى» ولا فى اى كتابات أخرى لعلى عزت. وتفاصيل ذلك واردة فى كتاب عن البوسنة (تحت النشر).

قرأت فى عدد «الأهرام» أول مارس ١٩٩٤م تعليقا شيقا للكاتب اللامع أنيس منصور على كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» ويتميز التعليق برشاقة الأسلوب وحيوية التعبير والكلمات القليلة الكاشفة، وهى خصائص يتمتع بها أنيس منصور فى كتاباته . . إنه يُبدى إعجابا واضحا بالكتاب وصاحبه . . ومع ذلك وجدت فى سياق التعليق عبارة يصف بها هدف المؤلف تقول: «وله هدف هو إقامة الدولة الإسلامية» . . واندهشت لإقحام هذه العبارة فى سياق لا يبررها وعلى كتاب لايناسبها . . خاصة أن التعليق نفسه يلخص موضوع الكتاب فى آخر عبارة وردت به تقول: «إن قراءة هذا الكتاب متعة فلسفية ونشوة إسلامية . . فأنت أمام بطل اسلامى عظيم الاحترام . . وهو من بين مئات ملايين المسلمين يستحق لقب المفكر الإسلامى أو المتفلسف الإسلامى» وإنه لكذلك . . وأصح ما يوصف به موضوع الكتاب أنه فلسفة إسلامية . فمن أين جاءت عبارة «وله هدف هو إقامة الدولة الإسلامية»؟ إننى أستبعد أن يكون كاتبها هو أنيس منصور نفسه، وأرجح إنها إضافة تبرع بها محرر ذكى أو جامع حروف مثقف انزلقت على أصابعه «صورة مقولبة» فألصقها بالتعليق دون وعى منه .

ومهما يكن الأمر فإن ما ذكرناه لا يعبر إلا عن أهون الجوانب فيما يتعلق بتأثير الصورة المقولبة على الصحافة العربية، فقد يجتمع لدى الكاتب مع تأثره بالقولبة الغربية المعادية سوء قصد أو نزعة خبيثة فنراه يقحم رأيه الخاص فى قضية معينة فى سياق لا يبرر هذا الرأى ولا يتوافق معه .

سقت لهذا أمثلة صارخة الدلالة فى بعض كتاباتى السابقة منها نموذج لكاتب صحفى يقدم عرضا لكتاب «هـ. ت. نوريس» (الإسلام فى البلقان) . أباح هذا الصحفى المغرض لنفسه أن يستغل ما يقرب من ربع مساحة مقاله للهجوم على شعب البوسنة المسلم فيشكك فى إسلامه ومواقفه وقضيته ويسخر من المسلمين الذين يتعاطفون معه فى أنحاء العالم . ولكى يخدع القارىء لم يشأ أن يعلن أن هذا هو رأيه الشخصى بل تركه يتوهم أن هذا كلام «هـ. ت. نوريس» مؤلف الكتاب، معتمدا على حقيقة أن القراء العرب لن يهتموا بقراءة الكتاب مكتفين بهذا العرض المشوه لمحتواه .

ولما كنت أعرف عن «نوريس» أنه باحث موضوعى مدقق وأنه ارتحل وعاش فى منطقة البلقان وأجاد لغتها واستوعب تاريخها وثقافتها وعاش مشكلاتها وتفاعل مع قضاياها - استبعدت ان يحمله الهوى إلى هذا المنزلق . فلما جئت بكتابه واطلعت عليه تملكتنى دهشة شديدة لأن الذى كتبه الصحفى لا وجود له فى الكتاب ولا يمكن استنتاجه من كلام مؤلفه . ولقد رأينا فى هذه المقدمة كيف أن «نوريس» كان من أكثر

الكتّاب إنصافا لفكر على عزت ودفاعا عن كتابه «الإعلان الإسلامى». ولكنها جرأة غريبة يستخف بها بعض الصحفيين العرب عقول الناس، وهى دليل على انعدام الأمانة عند بعض الكتّاب الذين يحملهم الهوى على تجاوز الحقيقة ويستمرئون التلاعب بعقول القراء.(٤٤)

حول موضوع الكتاب:

يشتمل كتاب الإعلان الإسلامى على مقدمة وثلاثة فصول وخلاصة.

يحدد المؤلف فى مقدمته الجمهور الذى يتوجه إليه بالخطاب، ويقرر أن الكتاب لا يخاطب غير المسلمين ولا الذين يتشككون فى تميز الإسلام عن النظم أو المدارس الفكرية الأخرى.. إنما يخاطب المسلمين الذين يدركون حقيقة انتمائهم للإسلام.. والذين تحدثهم قلوبهم حديثا صريحا واضحا عن طبيعة ولائهم الإسلامى.. ومهمة الكتاب بعد ذلك أنه يكشف لهم النتائج التى تترتب على هذا الموقف الذى التزموا به.

وفى الفصل الأول يشخص المؤلف ظاهرة التخلف بين الشعوب الإسلامية، وفى الفصل الثانى يتناول طبيعة المشروع الإسلامى أو النظام الإسلامى الذى يدعو إليه ويوضح أبعاده وعناصره، وفى الفصل الثالث يعالج المشكلات الاساسية التى تواجه النظام الإسلامى.

يرى على عزت أن النهضة الإسلامية تصطدم بنوعين متضادين من الناس ولكن بينهما عنصر مشترك وهما: المحافظون الجامدون على الأشكال القديمة، ودعاة الحداثة الذين يتطلعون إلى الأشكال الأجنبية.. أما العنصر المشترك بينهما فهو النظرة القاصرة أحادية الجانب إلى الإسلام، حيث يعتبرانه مجرد دين، بمعنى أنه مقتصر على الحياة الروحية للفرد، ولا شأن له بتنظيم الحياة الدنيا.

ويلاحظ على عزت أن دعاة الحداثة هم الذين يهيمنون على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة فى البلاد المسلمة.. ويكشف لنا عن سمة تميزهم وتيسر لنا التعرف عليهم: فهم يفخرون بما كان يجب أن يخجلوا منه، ويخجلون مما كان يجب أن يفخروا به.. لقد جلبوا إلى أوطانهم أفكارا ثورية أجنبية و«برامج إصلاح ومذاهب

---

(٤٤) النموذج المشار اليه نشر فى صحيفة الحياة الصادرة فى لندن يوم ٩ يناير سنة ١٩٩٤ وصاحب التعليق هو الصحفى «سباستيان أشر».

إنقاذ موصوفة لعلاج كل المشكلات، فإذا تأملنا مليًا نجد- لدهشتنا- نماذج لا يصدقها عقل في قصر نظرها وارتجالها».

ويقارن على عزت بين فلسفتى الإصلاح التى تبنتها كل من اليابان وتركيا «تحت نظام كمال أتاتورك»، ويكشف لنا عن الأسباب التى جعلت اليابان تنجح وتنطلق إلى قمة المجتمعات المتقدمة بينما انحطت تركيا إلى دولة متخلفة من دول العالم الثالث. وينبه- فى هذا المجال- الى حقيقة ما تعانيه الشعوب اليوم بسيرها على النموذج التركى فى الإصلاح، حيث ضاعت هويتها وفقدت استقلالها وأصبحت عالة على الدعم السياسى والاقتصادى لدول الغرب.

وينتهى على عزت إلى نظرية بالغة الأهمية حيث يرى أن جميع نجاحاتنا وإخفاقاتنا فى الأخلاق والسياسة إنما هى مجرد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التى طبقناه بها فى الحياة: «لقد كان ضعف تأثير الإسلام فى الحياة العملية للمسلمين مصحوبا دائما بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية.. وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق.. كأن هذا التطابق هو المصير الذى لا مناص منه للشعوب المسلمة.. وأحد قوانين التاريخ الإسلامى نفسه».

ويرتبط بهذه النظرية تأكيد على عزت أن القرآن «هو الفكرة المركزية فى الأيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية» ويرى أن إشكالية القرآن فى المجتمعات المسلمة ترجع إلى أن هذه المجتمعات تتعلق به تعلقا عاطفيا ولكنها لا تستطيع تطبيقه فى حياتها.. وهنا يكمن الفصام بين الكلمة والفعل فى العالم المسلم.. وينسب ظواهر الفساد والانحراف والسطحية والتنطع والتخلف جميعا إلى هذا التناقض الأساسى بين حماسنا المشتعل تجاه القرآن وبين الإهمال الكامل لمبادئه فى الممارسات العملية.

ويرى على عزت أن أسوأ الملامح فى أوضاع المسلمين العامة يتمثل فى تلك الفجوة المأساوية بين النخبة المهيمنة وبين الشعوب فى البلاد المسلمة.. وأن افتقاد التوافق بين عناصر الفكر والقيادة من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى «يخل بالشرط الأول لأى إنجاز عظيم».. ويُرجع السلبية واللامبالاة لدى جماهير المسلمين إلى وجود هذه الفجوة.. ويرى أن أى برامج إصلاح لن يكتب لها النجاح أبدا إذا كانت معادية للإسلام متجاهلة لمشاعر الجماهير المسلمة.. وستجد النخبة من دعاة الحداثة «أنهم يضربون برءوسهم فى صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى من الأمة».

ويؤكد على عزت أن النظام الإسلامى لا يمكن إقامته بدون مجتمع إسلامى كشرط أساسى.. وإلا تحول هذا النظام الى عنف وقهر واستبداد.

«المجتمع الإسلامى لا يُبنى ولا يتم إصلاحه بالقانون أو باسم القانون ولكن باسم (الله) وعن طريق تعليم الإنسان المسلم وتربيته».

ويلفت على عزت النظر إلى ظاهرة متفشية فى المجتمعات المسلمة حيث تتكاثر القوانين وتتشعب وتتعقد.. هنا يحذرنا بأن هذه علامة أكيدة على وجود شيء بالغ الفساد فى المجتمع.. ويرى فى هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء بتعليم الناس وتربيتهم.. ذلك لأنه «عندما يتجاوز الفساد فى بيئة ما حدا معينا يصبح القانون عقيما».

يقوم النظام الإسلامى- كما يراه على عزت- على ثلاثة عناصر لا يمكن الاستغناء عنها وهى: الاستقلال والحرية والديمقراطية.. والاستقلال الحقيقى- عنده- هو استقلال روحى وفكرى، وعلامة على أن شعبا قد وجد هويته واكتشف قوته الذاتية.

وينبه على عزت إلى حقيقة هامة وهى أنه كلما ابتعد نظام ما عن الإسلام كلما قل دعم الشعب له، ومن ثم يجد النظام نفسه مضطرا للبحث عن دعم خارجى.. فالتبعية التى تغرق فيها هذه النظم ليست إلا نتيجة مباشرة لتوجهاتها المعادية للإسلام.. وتتفاقم الأمور عندما تشعر هذه النظم بالمقاومة والعداء من جانب الشعب، فتلجأ إلى العنف لتمرير سياستها بالقوة.

ويحذر على عزت من الإنزلاق نحو وهم «الغاية تبرر الوسيلة» فقد أدى هذا المبدأ إلى جرائم لا حصر لها.. ولا أحد يملك الحق فى تشويه وجه الإسلام أو الإساءة إلى النضال الشريف باستعمال العنف الجامح.. فالغاية النبيلة لا يمكن الوصول إليها بوسائل دنيئة.

ويعارض معارضة شديدة الاستيلاء على السلطة بالقوة بحجة أن يقوم النظام بعد ذلك ببناء المؤسسات المناسبة.. وبتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية لبناء مجتمع إسلامى، فهو يرى ان هذا «مجرد غواية»، وأن التاريخ لا يذكر لنا أى ثورة حقيقية جاءت عن طريق السلطة ولكن عن طريق التربية.. وكانت معنية فى جوهرها بالدعوة الأخلاقية.

الترتيب الصحيح- عند على عزت- أن يقوم المجتمع الإسلامى أولا ثم يأتى بعده النظام الإسلامى وليس العكس.

وفى مجال الوحدة الإسلامية يؤكد على عزت أن الإسلام بطبيعته وروحه أقدر على توحيد الدول الإسلامية برباط أقوى من روابط المصلحة التى توحد الدول الأوربية؛ فالإسلام لا يقيم الوحدة بين المسلمين على المصالح فقط بل يجمع إليها عوامل الوحدة

الروحية والمبادئ الأخلاقية والرسالة الإنسانية فى إقامة العدل بين الناس. . وتلك هى (الأمة الإسلامية)، وليس معنى ذلك بالضرورة «الدولة الإسلامية العالمية الواحدة» كما فهم البعض خطأ أو كما أراد البعض أن يوهمنا بأن هذا هو ما يدعو إليه على عزت فى كتابه «الإعلان الإسلامى» (٤٥).

لقد عالج على عزت هذه النقطة بوضوح تام فى الفصل الثالث تحت عنوان «الجامعة الإسلامية والحركة القومية» حيث تحدث عن «وحدة إسلامية كبرى» ويفسر لنا على عزت طبيعة هذه الوحدة فيقول: «. . . نحن نعتقد أنه لا يوجد ما هو أقرب إلى طبيعة الأمور وإلى الواقعية من مطلب اتحاد المسلمين بشتى أشكال الوحدة ليكونوا أقدر على معالجة مشكلاتهم المشتركة. . وأن يتجهوا بصورة تدريجية نحو بناء مؤسسات اقتصادية وثقافية وسياسية - تتجاوز القوميات- لكى يحققوا التنسيق والعمل المشترك فى هذه المجالات الهامة».

ويرد على عزت بقوة على أدعياء الواقعية من المسلمين الذين يرون استحالة تحقيق هذه الوحدة حيث يقول: «. . . الحق أن هذه الواقعية مصدرها الجبن والخضوع لسطوة الأقوياء فى هذا العالم. . إن منطق هذه الواقعية يقول: ينبغى للسادة أن يظلوا أسيادا وأن يبقى العبيد عبيدا. . إن أدعياء الواقعية عندنا غير مؤهلين للإيمان أو العمل، وهذا هو سر واقعيتهم المهينة. . إنهم عندما يقولون إن وحدة المسلمين حلم لا يمكن تحقيقه فإنهم إنما يعبرون عن عجز يستشعرونه فى أنفسهم. . فالاستحالة ليست فى العالم الخارجى بل فى صميم قلوبهم.

ومن المزاعم التى أثيرت حول فكر على عزت أنه يرفض كل ما هو غير إسلامى فى مجتمع المسلمين. . ولكن على عزت - بعكس هذا الزعم - ينظر بإمعان إلى تجارب النظم الأخرى فى العالم ويرى فيها أشياء نافعة وأخرى ضارة. . ولذلك فهو يفرق بين ما هو «غير إسلامى» وما هو «ضد إسلامى» وهو يرفض كل ما هو «ضد إسلامى» ولكنه لا ينكر الأول بل ينفتح عليه برحابة عقل وسعة صدر حيث يقول: «إذا تحررنا من هوس الحتمية التاريخية والتفتنا إلى وسطية الإسلام يمكننا دون تعصبات أن نكتشف ما تنطوى عليه هذه الأنظمة القائمة من جوانب الخير والشر لا باعتبارها رأسمالية أو اشتراكية، ولكن باعتبارها تجارب إنسانية معينة تمارسها المجتمعات المعاصرة». ويمضى لتعميق هذه الفكرة فيقول: «إذا نحن وضعنا الشعارات

---

(٤٥) لا يعيب على عزت ولا أى مسلم مخلص أن يحلم بدولة واحدة تجمع كل بلاد المسلمين وشعوبهم ولكن ما نريد ان نقرره هنا هو ان على عزت لم يتعرض لهذا الموضوع أنه معنى- أكبر عناية - بالأمة الإسلامية. . معنى بالوحدة بين المجتمعات والشعوب والدول الإسلامية والتنسيق فيما بينها اقتصاديا وسياسيا.

والمصطلحات المضللة جانبا وأخذنا فى حسابنا فقط الحقائق التى نراها ماثلة أمامنا «فيجب أن نعترف بالتطور الهائل فى العالم الرأسمالى الذى تكشف عنه حيويته وقدرته على دفع عجلة العلم والاقتصاد إلى الأمام، إلى جانب أنه استطاع أن يتيح درجة أعلى من الحرية السياسية والأمن القانونى» ومن ناحية أخرى «لا يمكننا أن نتغاضى عن إنجازات النظام الاشتراكى وخصوصا فى مجال تعبئة الموارد المادية وفى التعليم وفى القضاء على صور الفقر التقليدية . . وفى نفس الوقت »لا يسعنا أن نتغاضى عن جوانب مظلمة وغير مقبولة فى التقدمات الرأسمالية والاشتراكية ولا أن نتجاهل الكوارث الكبرى التى تزلزل كلا من النظامين من وقت لآخر». ويخلص على عزت من هذا كله إلى أن«الانفتاح العملى للإسلام فى مجال حل المشكلات يجعله فى وضع متميز يُمكّنه من دراسة التجارب الإيجابية والسلبية للآخرين دون تعصبات» . . وبالتالى الانتفاع بأفضل ما فى هذين النظامين .

ويذكّرنا على عزت فى النهاية بحقيقة هامة وهى أننا لا يجب أن نستهين بقدر الأخوّة بين المسلمين ولا بالعاطفة القوية التى تربطهم فى جميع أنحاء الأرض بالقرآن، والتى تدل على أن العالم المسلم لم يمت وإنما لايزال حيا ينبض بالحياة . . «فحيث توجد مثل هذه المشاعر لا يوجد موت . . إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة وإنما هو تربة عذراء فى انتظار يد الزارع . وبفضل هذه الحقائق تصبح مهمتنا واقعية قابلة للتحقيق . . إن مهمتنا تتمثل فى تحويل هذه المشاعر الكامنة إلى قوى فعالة مؤثرة . فالإخلاص للقرآن لابد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه، وأن تتحول الجماعة الاسلامية القائمة على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة . . وأن يتحول حب الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هى المحتوى الأخلاقى والاجتماعى للقوانين والمؤسسات» .

وهكذا تتعاظم فى فكر على عزت مكانة القرآن فى صميم النظام الإسلامى، كما تتعاظم قيم العدل والإنصاف والإنسانية . . ويرتفع فكره فوق الأحقاد والتعصبات وضيق الأفق، لينطلق فى رحاب الفكر الإنسانى الواسع بحرية الواثق بإيمانه وسمو مقاصده ونُبل أهدافه .

مقدمة المؤلف

إن الإعلان الذى نعرضه اليوم على الجماهير ليس من قبيل القراءات الموصوفة لغير المسلمين، ولا للذين يتشككون فى تميز الإسلام عن أى نظام أو مدرسة فكرية أخرى.

هذا الإعلان موجه إلى المسلمين الذين يعلمون إلى أى شيء ينتمون.. والذين تحدثهم قلوبهم حديثا واضحا صريحا عن الجانب الذى يلتزمون الوقوف فيه.. ومن ثم فإنه دعوة لتفهم النتائج التى تترتب بالضرورة على الموقف الذى يلتزمون به حبًّا وولاءً.

إن العالم المسلم(٤٦) بأسره يموج بحالة من الاضطراب والتحول، ومهما يكن الشكل الذى سيتخذه- عندما تبدأ آثار هذا التحول فى الظهور- فإن أمرا واحدا هو المؤكد.. ألا وهو: أن العالم المسلم لن يكون أبدا عالم النصف الأول من القرن العشرين.. لقد مضى عهد الاستسلام والركود بلا رجعة.

إن أطرافا كثيرة تحاول اليوم أن تستفيد من مرحلة الاضطراب والتحول الذى يمر بها المسلمون، وبخاصة القوى العالمية فى الشرق والغرب.. ولكنهم بدلا من استخدام جيوشهم يستخدمون الأفكار ورءوس الأموال.. وبهذه الأساليب الجديدة من السيطرة يحاولون- مرة أخرى- تحقيق نفس الأهداف القديمة: تأكيد سيطرتهم على الشعوب المسلمة وإبقائها فى حالة مستمرة من الضعف الروحى والتبعية المادية والسياسية.

فإن دول الغرب وروسيا والصين تتنافس جميعا لمد نفوذها على كل جزء من العالم المسلم.. إلا أن تنافسها لن يكون له جدوى.. فالعالم المسلم لا ينتمى إلى أولئك أو هؤلاء إنما ينتمى إلى الشعوب المسلمة.

(٤٦) يفضل المؤلف وصف بلاد المسلمين ـ بأوضاعها الراهنة التى تبتعد كثيرا أو قليلا عن حقائق الاسلام ومبادئه ونظامه ـ بالعالم «المسلم» أو البلاد «المسلمة»، وهو بذلك إنما يريد أن ينبهنا إلى أن ثمة فجوة قائمة بين واقع المسلمين التعيس وبين الإسلام الحقيقى. ويتسق المؤلف مع نفسه عندما يقصر الوصف بكلمة «اسلامى» على مجالات الفكر والمبادئ والحركة.. «المترجم».

إن عالما يتألف من ٧٠٠ مليون من السكان[٤٧] -يمتلك ثروات طبيعية ضخمة، ويشغل مركزاً جغرافيا متميزا، وارثاً لتقاليد ثقافية وسياسية عريقة- إذ انتصر للفكر الإسلامى الحى، لا يمكن أن يبقى طويلا فى حالة الخضوع والتبعية، ولا توجد أى قوة مهما عظمت تستطيع أن توقف الأجيال الجديدة من المسلمين من وضع نهاية لهذه الحالة الشاذة.

بهذا الإيمان نعلن لأصدقائنا ولأعدائنا على السواء أن المسلمين مصممون على أن يأخذوا مصير عالمهم فى أيديهم، وأن ينظموا هذا العالم وفقاً لرؤيتهم الخاصة.

إن الأفكار التى يتضمنها هذا الإعلان ليست جديدة كلها، إنما هى بالأحرى جماع أفكار طالما ترددت فى أماكن كثيرة مختلفة وعُلق عليها نفس الأهمية فى جميع أنحاء العالم المسلم. أما الجديد فى هذا الإعلان فهو سعيه لتعزيز هذه الأفكار والخطط بعمل منظم.

إن الجهاد فى سبيل غايات نبيلة ليس وليد اليوم، فقد جرب المسلمون السابقون الشهادة، وتاريخهم حافل بصفحات مليئة بالمعاناة والتضحيات والشهداء. وكانت هذه فى أساسها تضحيات شخصية قام بها أفراد متميزون أو مجموعة من أقليات شجاعة تصادمت مع قوى الطغيان الجاهلى، ولكن ضخامة المشكلة اليوم وما يكتنفها من صعوبات كثيرة يتطلب مزيدا من العمل المنظم للملايين.

هل نريد للشعوب المسلمة أن تخرج من دائرة التبعية والتخلف والفقر؟.. هل نريد لها أن تنطلق فى طريق العزة والنهضة مرة أخرى؟.. هل نريد للشجاعة المتوهجة والعبقرية والفضيلة أن تنبعث من جديد بكل قوتها وزخمها فى كيان هذه الأمة؟..

يمكننا إذاً أن نبين بوضوح الطريق الذى يؤدى الى تحقيق هذه الغايات: إنه طريق إحياء الإسلام فى جميع مجالات حياتنا الفردية الشخصية، وإحيائه فى الأسرة والمجتمع، وتجديد الأفكار الإسلامية، وإقامة مجتمع إسلامى موحد من المغرب إلى أندونيسيا.

قد تبدو هذه الغاية بعيدة المنال أو مستحيلة التحقيق، ولكنها- رغم كل شيء- غاية عملية لأنها الغاية الوحيدة التى تقع فى إطار الإمكان. وعلى عكس ذلك.. كل برنامج غير إسلامى.. وإن بدا لنا قريب المنال- يعتبر بالنسبة للعالم الإسلامى مجرد طوبيا،[٤٨] لأن هذه البرامج تقع فى نطاق المستحيل.

---

(٤٧) كان هذا إحصاء السبعينيات، أما الآن فيوجد حوالى مليار وربع المليار مسلم فى العالم.

(٤٨) «طوبيا» ترجمة لمصطلح utopia وقد أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى «المعجم الفلسفى» المنشور سنة ١٩٨٣ وهو هنا مستعمل بمعناه الاصلى كرؤية لنظام مثالى أو خيالى لمجتمع انسانى على غرار المجتمعات الحيوانية «كالنحل والنمل» وهى مجتمعات تفتقر إلى الإنسانية والحرية والأخلاق «المترجم».

أثبت التاريخ حقيقة واحدة لا لبس فيه : أن الإسلام هو الفكرة الوحيدة القادرة على إطلاق خيال الشعوب المسلمة . . الفكرة الوحيدة التى تستطيع أن تقطر فى عقول المسلمين ووجداناتهم كل ما يحفزهم على التنظيم . . وكل ما يُفجّر فيهم الطاقة والإلهام . ولم تستطع فكرة أخرى أجنبية عن الإسلام أن تستحوذ على فكر المسلمين استحواذا حقيقيا سواء فى الثقافة أو فى السياسة . فى الحقيقة . . لقد تم كل أمر عظيم وهام فى تاريخ الشعوب الإسلامية تحت راية الإسلام . فبضعة آلاف من المجاهدين المسلمين الذين أُحسن تدريبهم استطاعوا أن يجبروا البريطانيين على الانسحاب من قناة السويس فى الخمسينيات ، بينما الجيوش الموحدة للأنظمة القومية فى البلاد العربية تخسر المعركة للمرة الثالثة أمام إسرائيل (٤٩) واستطاعت تركيا عندما كانت دولة إسلامية أن تحكم العالم ، أما تركيا التى تعيش اليوم عالة على الفكر الأوربى فقد أصبحت دولة من الدرجة الثالثة شأنها فى ذلك شأن مئات من الدول الأخرى المتخلفة فى أنحاء العالم .

الشعب – شأنه تماما كشأن الفرد – إذا تقبَّل الإسلام يصبح غير قادر على الحياة أو الموت فى سبيل أى فكرة أخرى سوى الإسلام . ولا يفكر مسلم حقيقى أن يضحى بنفسه من أجل ملك أو حاكم مهما عظم قدره ، ولا من أجل مجد دولة أو حزب لأن أعمق غرائزه الاسلامية تستشعر فى هذه التضحية نوعا من الوثنية . إن المسلم يُقبل على الموت فقط فى سبيل الله ولنصرة الإسلام ، وفيما عدا ذلك فإنه يتجنب أرض المعركة .

وعصور السلبية والركود تعنى فى الحقيقة غياب الاختيار الإسلامى . . هنالك يجنح المسلمون عن ولوج الطريق الصعب إيثارا للدّعة . . ومن ثم نستطيع أن نقول إن هذه العصور هى التعبير السلبى للاحتكار الروحى الذى يهيمن به الإسلام على العالم المسلم .

إذا سلمنا بهذا الموقف كتعبير عن إرادة الله لهذه الأمة ، فإننا نقرر بطريقة إيجابية أن العالم الإسلامى لا يمكن تجديده بدون الإسلام ولا بفكر مضادّ للإسلام ، ذلك لأن الإسلام ومبادئه الراسخة فيما يتعلق بمكان الإنسان فى العالم ، والغاية من الحياة الإنسانية ، وعلاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الإنسان بالإنسان – كل هذا يبقى على الدوام الأساس الأخلاقى والفلسفى والعقائدى والسياسى لأى عمل أصيل يمكن القيام به فى سبيل تجديد الشعوب المسلمة وإصلاح حالها .

إن الاختيار قاطع : فإما توجُّهٌ كامل نحو النهضة الإسلامية وإما السلبية والركود . . وليس أمام الشعوب المسلمة اختيار ثالث .

إننا نهدى هذه الرسالة إلى ذكرى إخواننا الذين سبقونا إلى الشهادة فى سبيل الإسلام .

على عزت بيجوفيتش

---

(٤٩) يشير المؤلف هنا إلى حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل .

الفصل الأول
تخلف الشعوب المسلمة

المحافظون ودعاة الحداثة :

إن فكرة النهضة الإسلامية التى تنظر إلى الإسلام لا من حيث قدرته فقط على تهذيب الإنسان وإنما أيضا على تنظيم العالم، سوف تصطدم دائما بنوعين من الناس وهم : المحافظون ودعاة الحداثة. يتعلق المحافظون بالأشكال القديمة، ويتطلع دعاة التحديث إلى الأشكال الأجنبية. يجر الأولون الإسلام إلي الوراء نحو الماضى، ويقحم الآخرون الاسلام فى متاهات مستقبل أجنبى.

ورغم هذا الاختلاف، فإن هذين النوعين من الناس بينهما شيء مشترك، فكلاهما ينظر إلى الإسلام من زاوية ضيقة، حيث لا يرى فيه إلا «دينا مجردا» بالمعنى الأوربى لهذه العبارة. ونحن نرى فى هذا الموقف قصورا فى فهم لغة الإسلام ومنطقه، بل إخفاقاً أكبر فى فهم روح الإسلام ودوره فى التاريخ وفى العالم. لقد أدى هذا القصور إلى سوء فهم جسيم للاسلام باختزاله إلى مجرد «دين»، وتلك فكرة خاطئة تماما. (٥٠)

قد يبدو من قبيل التكرار تأكيد الحقائق الأساسية فيما يتعلق بأصل الإنسان ورسالته، إلا أن مدخل الإسلام فى هذه الناحية يعتبر مدخلا متميزا حيث يدعو إلى الجمع بين الإيمان والعلم. بين الأخلاق والسياسة. . بين المثل العليا والمصالح. وبالاعتراف بوجود عالمين : العالم الطبيعى والعالم الروحى الداخلى، يعلمنا الإسلام أن الإنسان بتكوينه الفريد هو الذى وصل بين هذين العالمين، وبدون هذا التوحيد بين العالمين سنجد الدين يميل إلى التخلف (حيث يرفض أى نوع من أنواع الحياة المنتجة)، ونجد العلم يميل إلى الإلحاد.

---

(٥٠) لمزيد من التوضيح لفكرة «الدين المجرد» انظر كتاب المؤلف : «الاسلام بين الشرق والغرب» الفصل الثامن الإسلام والدين «المترجم».

وانطلاقا من وجهة النظر التى تذهب إلى أن الإسلام مجرد دين سنرى أن المحافظين يستنتجون أن الإسلام «لا ينبغى له» أن يسعى لتنظيم العالم الخارجى، ونرى دعاة الحداثة يستنتجون أن الإسلام «لا يستطيع» تنظيم العالم الخارجى، والنتيجة العملية واحدة.

إن النصير الرئيسى- إن لم يكن الأوحد- للفكر المتحفظ فى العالم المسلم اليوم هم «الحُجّاج والمشايخ»[٥١] هؤلاء الناس- خلافا للتعاليم الواضحة أنه لا كهنوت فى الإسلام- جعلوا من أنفسهم طبقة منظمة هيمنت على تفسير الإسلام ووضعت نفسها وسيطا بين الإنسان والقرآن. ولأنهم جعلوا من أنفسهم طبقة فقد أصبحوا «لاهوتيين» متحجرين فى معتقداتهم. ولأن العقيدة الإسلامية فى نظرهم قد تنزّلت وتم تفسيرها بصفة نهائية فإن أفضل شىء ممكن هو أن نترك كل الأمور كما وصلت إلينا وتم تحديدها منذ ألف سنة مضت أو أكثر، وبهذا المنطق المتحجر أصبحوا أعداء أشدّاء لكل جديد، فأى محاولة لتطوير الشريعة كقانون- بمعنى تطبيق مبادئ القرآن على المواقف المستجدة التى ما فتئت تظهر خلال تطور الحياة- يواجهها هؤلاء بطعن فى سلامة إيمان أصحاب هذه المحاولات. لعلهم يفسرون موقفهم بأنه حب للإسلام وغيرة عليه. . ولكنه حب مَرَضى لأناس متخلفين ضيقى الأفق. . لقد اختنق الفكر الإسلامى الحى بعناقهم المميت.

ولكن قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن الإسلام قد ظل كتابا مغلقا فى يد هؤلاء «اللاهوتيين». حقا لقد ازداد انغلاقا عن المعرفة المستنيرة، ولكنه فى نفس الوقت ازداد انفتاحا على الغيبيات. فقد سمح هؤلاء «اللاهوتيين» بتدوين كثرة من الأشياء اللامعقولة فى هذا الكتاب. . أشياء غريبة تماما عن الفكر الإسلامى اشتملت على خرافات محضة. إن كل من عرف طبيعة اللاهوت يعلم لمَ كان عاجزا عن الصمود أمام إغراء الأساطير؟ بل أكثر من هذا يرى فيها إثراء للفكر الدينى. وهكذا رأينا عقيدة الوحدانية التى جاء بها القرآن- وهى أنقى وأكمل الأفكار الدينية التى ظهرت فى التاريخ- يُضّحى بها تدريجيا بينما ظهرت فى الممارسة تجارة بغيضة فى العقيدة. إن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم شُرّاح العقيدة أو حُرّاسها قد جعلوا من هذا وظيفة مقبولة

---

(٥١) المشايخ- عنده- هم فى الاغلب رؤوس الفرق الصوفية المنتشرون فى البوسنة ولعل المؤلف يشير إلى فئة من الناس صادفت أمثلة منهم فى بلاد جنوب شرق آسيا، عندما يعودون من أداء الحج يذهبون إلى قراهم بثوب جديد وعمامة، ويلتف حولهم بسطاء المسلمين طلبا للفتوى الدينية، ويتلبس الحجاج بدورهم الجديد فيتصدون للوعظ والفتوى وهم فى الحقيقة لا يملكون إلا فتات المعرفة. «المترجم».

ومربحة . . ودون وخز من ضمير وصلوا إلى وضع رضوا فيه باستبعاد العقيدة عن مجالات تطبيقها فى الحياة .

لقد تبين أن اللاهوتيين أناس غير صالحين فى مكان غير مناسب . والآن وقد بدأت جميع الدلائل تشير إلى أن العالم الإسلامى يصحو من رقدته فإن هذه الفئة أصبحت تمثل التعبير عن كل ما هو كئيب ومتصلب فى هذا العالم . لقد برهنت هذه الفئة على عجزها عن إتخاذ أى نوع من الخطوات الإيجابية لتدعيم العالم المسلم فى مجابهة الخطوب الفادحة التى تنزل به فى كل يوم .

أما أولئك الذين يُدْعون بالتقدميين أو العصريين أو المستغربين إلى غير ذلك مما يسمون به أنفسهم . . فإنهم يمثلون فى الحقيقة سوء حظ هذه الأمة المسلمة . إنهم كثرة كثيرة . . ذات نفوذ وتأثير . إنهم يهيمنون بشكل ملحوظ على الحكومات وعلى التعليم والحياة العامة . وهم يرون فى فئة المحافظين تشخيصا للإسلام . . ويدعون الآخرين إلى أن ينظروا نفس النظرة . . وهكذا استطاع دعاة الحداثة أن ينشئوا جبهة ضد كل ما تمثله الفكرة الإسلامية . ونستطيع التعرف على هؤلاء الذين أقاموا اليوم من أنفسهم مصلحين فى البلاد المسلمة من خلال فخرهم بما كان يجب أن يخجلوا منه ، وخجلوا مما كان يجب أن يفخروا به . . ! إنهم «أبناء آبائهم» فقد تعلموا فى أوربا ثم عادوا من هناك بشعور عميق بالدّونية تجاه العالم الغربى المتقدم الغنى ، وشعور بالاستعلاء على مجتمعاتهم التى جاءوا منها وقد أحاط بها الفقر والتخلف . لقد حُرموا من التربية الإسلامية الصحيحة وفقدوا كل صلة روحية أو أخلاقية بشعوبهم ومن ثم فقدوا معاييرهم الأولى وأصبحوا يتخيلون أنهم بتخريب الأفكار المحلية والتقاليد والمعتقدات وبتقديم أفكار غريبة سيقيمون أمريكا- التى يكنّون لها إعجابا مبالغا فيه- على أرض بلادهم فى يوم وليلة . إنهم بدلا من العمل على تطوير إمكانات بلادهم الخاصة ذهبوا ينفخون فى شهوات الناس ويضخمون رغباتهم المادية ، فأفسحوا بذلك الطريق أمام الفساد والفوضى الأخلاقية ، إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا أن قوة العالم الغربى لا تكمن فى طريقته فى الحياة . وإنما فى طريقته فى العمل . . وأن قوته ليست فى الموضة والإلحاد وأوكار الليل وتمرد الشباب على التقاليد ، وإنما تكمن فى الكدح الذى لا مثيل له ، وفى المثابرة والعلم والشعور بالمسئولية التى تتميز بها شعوبهم .

المشكلة إذن ليست فى أن مستغربينا قد استخدموا أساليب أجنبية ، وإنما فى أنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها أو يضعونها فى موضعها الصحيح . . وأنهم لم يفلحوا فى تطوير حس قوى يكفى للتمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح ، ومن ثم أخفقوا فى اختيار المنتج الحضارى المفيد واستعاروا لمجتمعاتهم بدلا منه عرضاً مرضياً من أعراض هذه الحضارة فكان مُنتجاً ضارا بل قاتلا .

ومن بين السلع المشكوك فى قيمتها- مما يجلبه مستغربونا معهم إلى أوطانهم- أفكار «ثورية» مختلفة وبرامج إصلاح، و«مذاهب إنقاذ» موصوفة لعلاج جميع المشكلات. فإذا تأملناها مليا نجد- لدهشتنا- نماذج لا يصدقها عقل فى قصر نظرها وارتجالها.

خذ لذلك مثلا «مصطفى كمال أتاتورك» الذى كان قائدا عسكريا أكثر منه مصلحا ثقافيا، والذى ينبغى وضع خدماته لتركيا فى حجمها الصحيح؛ ففى أحد برامجه الإصلاحية منع لبس الطربوش. . وطبعا ظهر على الفور أن تغيير غطاء الرءوس لا يعنى تغيير ما فى هذه الرءوس ولا تغيير عادات أصحابها.

لقد واجهت أمم كثيرة خارج العالم الغربى- على مدى قرن من الزمن- مشكلة: كيف تنتسب إلى الحضارة الغربية، هل ترفضها كلية. . أم تختار منها بحذر. . أم تأخذها كلها بخيرها وشرها؟ ولقد تحددت عوامل سقوط كثير من هذه الأمم أو ارتفاعها بالطريقة التى أجابت بها على هذا السؤال المصيرى. فهناك إصلاحات تعكس حكمة أمة ما، وإصلاحات تمثل خداع أمة لنفسها، والمثل على ذلك قائم فى نموذجين هما: اليابان وتركيا.

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يجد المتأمل أن كلا الدولتين تُقَدمان صورة شبيهة جدا لدول أخرى مثيلة. فقد كانت الدولتان تمثلان إمبراطوريتين قديمتين، كل منها له ملامحه ومكانته التاريخية. كلاهما وجدت نفسها على نفس المستوى من التطور. . كلاهما يمتلك ماضيا باهرا. . وهذا يشير إلى الامتياز العظيم وإلى العبء العظيم فى نفس الوقت. . وفى كلمة واحدة كانت فرصتهما فى المستقبل- عند نقطة معينة- تكاد تكون متساوية.

ثم جاءت الإصلاحات المشهورة فى كل من الدولتين. أما اليابان- فلكى تستمر فى الحياة بطريقتها الخاصة وليس بأى طريقة أخرى- حاولت أن توحّد بين تقاليدها الخاصة وبين متطلبات التقدم. بينما اتجه التقدميون دعاة الحداثة فى تركيا إلى سلوك الطريق المعاكس (فتخلوا عن تقاليدهم واندفعوا فى طريق التغريب). فماذا كانت النتيجة؟ أصبحت اليوم تركيا من الدرجة الثالثة، بينما اليابان ترتفع إلى القمة بين أمم العالم.

ويبدو الاختلاف بين فلسفة الإصلاح اليابانى وفلسفة الإصلاح التركى أكثر وضوحا فى موقفهما المختلف من مسألة حروف الكتابة: حيث قامت تركيا بإلغاء حروف الكتابة العربية فى حين أن هذه الحروف لبساطتها ولأنها تتألف من ثمانية وعشرين حرفا فقط- تعتبر واحدة من أكمل وأرقى حروف الكتابة وأكثرها انتشارا فى العالم. أما اليابان فقد رفضت دعوة مستغربيها فى تبنى حروف الكتابة اللاتينية

وأصرت على الاحتفاظ بنظام كتابتها المعقد الذى يحتوى على ٨٨٠ «إيديوجرام» (شكلا صينيا) بالإضافة إلى ٤٦ حرفا أخرى. ورغم ذلك فلا يوجد فى اليابان أمية بينما نجد تركيا بعد أربعين سنة من استخدام الحروف اللاتينية تزيد الأمية فيها خمسين فى المائة من تعداد السكان الذين يجهلون القراءة والكتابة. وتلك نتيجة تجعل الأعمى يسترد بصره.

وليس هذا هو كل شىء، فقد أصبح واضحا أن القضية لم تكن مجرد حروف كتابة هى مجرد وسيلة للتسجيل، ولكن الأسباب الحقيقية وبالتالى النتائج التى ترتبت عليها كانت أكثر عمقا وأكبر خطرا. فجوهر كل حضارة أو تقدم إنسانى يكمن فى الاستمرارية وليس فى التخريب والتنكّر للماضى. إن طريقة الأمة فى الكتابة هى الطريقة التى تتذكر بها الأمة وتستمر فى وجودها التاريخى. وعندما ألغت تركيا الحروف العربية فقدت كل ثراء الماضى الذى حفظته الكلمة المكتوبة. وبهذا الإجراء وحده وضعت الأمة على حافة البربرية. ومع سلسلة أخرى من الإصلاحات المماثلة وجدت الأجيال التركية نفسها بلا دعامة روحية تقوم حياتها.. وجدت نفسها فى فراغ روحى بعد أن فقدت ذاكرتها الماضية.. فمن الذى استفاد بهذا الوضع؟.

إن دعاة الحداثة فى العالم المسلم حينذاك لم يكونوا من الحكماء الذين انبثقوا من صميم شعوبهم.. يعرفون كيف يطبقون بطريقة جديدة الأفكار والقيم القديمة على الظروف المتغيرة، إنما ناصبوا هذه القيم العداء.. فعلوا ذلك بسخرية باردة، وبقصر نظر رهيب، وسحقوا بأقدامهم كل ما هو مقدس عند الناس، فدمّروا الحياة، واستزرعوا بدلا منها حياة مصطنعة غير حقيقية. ونتيجة لهذه البربرية التى سادت فى تركيا كما سادت فى كل مكان ظهرت دول مزيفة أصابها الاضطراب الروحى وفقدت ملامحها العريقة كما فقدت حاسة الاتجاه الصحيح. كل شىء فيها أصبح سطحيا زائفا، وفقد الإنسان فيها القوة والحماسة.

وهكذا أصبحت الأمة مسخا مشوّها يشبه مدنها الحديثة ذات البريق المصطنع الذى يخفى وراءه باطنا خربا.

فهل تستطيع دولة لا تعرف هويتها ولا تعرف أين تمتد جذورها أن تكوّن لنفسها صورة واضحة عن الموقع الذى تنتمى إليه، والأهداف التى يجب أن تسعى لتحقيقها؟.

قد يبدو النموذج الذى قدمه «أتاتورك» مفجعا، ومع ذلك فإنه يمثل النمط الغربى لفهم مشكلات العالم المسلم كما يمثل الطريقة التى يفكر بها الغربيون والمستغربون لإصلاح هذه المشكلات. وقد أدى بنا هذا الى مصير واحد: التغريب والانسلاخ

والهروب من مواجهة المشكلات الحقيقية، ومن العمل الجاد للارتفاع بالناس أخلاقيا وتعليميا. . والتوجه كلية إلى الخارج والسطحى والمصطنع.

فما الذى يعنيه استقلال دولة مسلمة وقعت ادارة حياتها العامة فى أيدى هذا النوع من الناس؟ وما الذى استفاده الشعب من هذا الاستقلال والحرية!؟

إن كل دولة بتقبلها هذه الطريقة من التفكير الأجنبى معتمدة على الدعم السياسى الأجنبى سواء من الشرق أو الغرب- قد أذعنت للعبودية من جديد. وهكذا وجدنا أمامنا نوعا من الاستقلال يعتنق فلسفة أجنبية وطريقة أجنبية فى الحياة. استقلال يستند الى المساعدات الأجنبية ورءوس الأموال الأجنبية. والدعم الأجنبى بصفة عامة. فالذى اكتسبته هذه الدول- على وجه الحقيقة- إنما هو استقلال شكلى. . ولكنها لم تحصل على حرية حقيقية، لأن كل حرية فى صميمها حرية روحية. . وأى استقلال لا يحقق هذا الشرط سرعان ما يختزل الى مجرد السلام الوطنى وعلم جديد، وهما عنصران تافهان بالنسبة للاستقلال الحقيقى. ومن ثم فإن الجهاد من أجل الاستقلال الحقيقى للشعوب المسلمة لابد أن يبدأ من جديد.

جذور العجز:

هذان النوعان من الناس: المحافظون ودعاة الحداثة يمثلان المفتاح لفهم الأوضاع الراهنة للشعوب المسلمة. إنهما وإن لم يكونا السبب الوحيد لهذه الأوضاع إلا أن كلا الوجهين يعتبر المظهر الخارجى لسبب أعمق. . ألا وهو: الحط من قدْر الفكر الإسلامى من ناحية ورفض هذا الفكر من ناحية أخرى.

ليس تاريخ الشعوب المسلمة فقط تاريخ التأكيد المتصل للإسلام فى الحياة العملية، بل إنه بنفس الدرجة قصة جهل وإهمال وسوء استخدام وخيانة للفكر الإسلامى. ولذلك فإن تاريخ كل شعب مسلم هو قائمة المنجزات العبقرية والانتصارات وفى نفس الوقت قائمة الأخطاء الفاحشة والهزائم. وكل نجاحاتنا واخفاقاتنا من الناحيتين الأخلاقية والسياسية هى مجرد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التى طبقناه بها فى الحياة. لقد كان ضعف تأثير الإسلام فى الحياة العملية للمسلمين مصحوبا دائما بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية.

وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق، كأن هذا التطابق هو المصير الذى لا مناص منه للشعوب المسلمة وأحد قوانين التاريخ الاسلامى نفسه.

وهناك لحظتان متميزتان فى مجرى التاريخ الإسلامى، أحداهما لحظة ازدهار والأخرى لحظة انحطاط، وهما يصوران هذه الحقيقة أصدق تصوير.

لقد تُوفّى محمد- صلى الله عليه وسلم- سنة ٦٣٢م، وفى أقل من مائة عام من وفاته انتشرت القوة الروحية والسياسية لرسالته على بقعة هائلة من الكرة الأرضية ممتدة من المحيط الأطلسى إلى الصين ومن بحيرة آرال إلى منابع النيل.

فُتحت سوريا سنة ٦٣٤م وسقطت «دمشق» أمام الجيش الإسلامى سنة ٦٣٥م، ووصل الإسلام إلى مصر والهند سنة ٦٤١م، وإلى «قرطاج» سنة ٦٤٧م، وإلى «سمرقند» سنة ٦٤٧م. وكان المسلمون على أبواب القسطنطينية سنة ٧١٧م. وفى سنة ٧٢٠م كانوا فى جنوب فرنسا، وكان هناك مساجد فى شانتونج سنة ٧٠٠م وحوالى سنة ٨٣٠ وصل الإسلام إلى جزيرة جاوه.

هذا التوسع الفريد الذى لا يقارن بأى توسع آخر قبله أو بعده قد وفّر مساحة لتطوير الحضارة الاسلامية فى ثلاثة عوالم: فى أسبانيا والشرق الأوسط والهند، وذلك على مدى حقبة من الزمن تبلغ حوالى ألف عام.

فما الذى يمثله المسلمون اليوم فى العالم المعاصر؟ هذا السؤال يمكن وضعه بطريقة أخرى: إلى أى مدى نحن مسلمون؟! إن الإجابة على هذين السؤالين واحدة:

نحن مستعبدون: فى نقطة معينة من التاريخ الحديث هى سنة ١٩١٩م لم تكن توجد دولة مسلمة واحدة مستقلة.. ولم تتغير الأوضاع بعد هذه النقطة تغيرا جوهريا.

نحن غير متعلمين: ففى الفترة ما بين الحربين العالميتين لم توجد دولة مسلمة واحدة بلغت نسبة القراءة والكتابة فيها أكثر من ٥٠٪ وعند الاستقلال وُجد أن ٧٥٪ من شعب الباكستان و٨٠٪ من الجزائريين و٩٠٪ من النيجريين يعانون من الأمية. وإذا قارنا هذا الوضع بما ذكره «درابر» DRAPER عن أسبانيا المسلمة «الأندلس» خلال القرن الحادى عشر الميلادى تملكنا العجب، فقد أكد «درابر» أنه لم يكن يوجد فى أسبانيا حينذاك فرد واحد يجهل القراءة والكتابة.

نحن فقراء: فقد كان متوسط الدخل الفردى فى إيران سنة ١٩٦٦ يبلغ ٢٢٠ دولارا أمريكيا، وفى تركيا ٢٤٠ دولارا، وفى ماليزيا ٢٥٠ دولارا، وفى باكستان ٩٠ دولارا، وفى أفغانستان ٨٥ دولارا، وفى أندونيسيا ٧٠ دولارا، مقارنة بـ ٣٠٠٠ دولار متوسط دخل الفرد فى الولايات المتحدة فى نفس السنة. وكان إسهام الصناعة

فى الدخل القومى للدول المسلمة يتفاوت من ١٠٪ إلى ٢٠٪، وكان نصيب الفرد من السعرات الحرارية فى وجبات الغذاء اليومية يبلغ ٢٠٠٠ وحدة فى المتوسط مقارنة بـ ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ وحدة من السعرات فى أوربا الغربية.

نحن مجتمعات ممزقة: فبدلا من الحفاظ على مجتمع واحد خال من الفقر الكافر والترف السفيه، تحولت المجتمعات المسلمة الى عكس هذه الصورة، مناقضة فى ذلك لتعاليم القرآن التى تحول دون تركيز الثروة فى يد فئة قليلة من الناس دون بقية أفراد المجتمع ﴿**كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾(٥٢) فالملكية تنتقل تدريجيا الى يد الأقلية الغنية. قبل الإصلاح الزراعى فى العراق سنة ١٩٥٨ كان كبار الملاك يملكون ١٨ مليون دونم من الأرض الزراعية التى تبلغ جملتها ٢٢ مليون دونم أى ٨٢٪ بينما كان يوجد مليون وأربعمائة ألف فلاح عراقى لا يملكون أرضا على الإطلاق.

تلك هى حال المسلمين التى سماها البعض بحق «ليل الاسلام المظلم»، والحقيقة أن هذا الليل قد بدأ بغروب فى قلوبنا. وكل ما حدث لنا وما يحدث لنا اليوم إنما هو صدى وتكرار لما حدث من قبل فى داخلنا: ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾.(٥٣)

إننا إذا استمسكنا بإسلامنا استمساكا حقيقيا لا يمكن استعبادنا أو إيقاعنا فى الجهالة أو تجهيلنا أو تمزيق وحدتنا.. لا يمكن أن نرتد عن الإسلام، لقد جاءت كل هزائمنا ابتداء من غزوة أحد حتي هزيمتنا فى سيناء لتؤكد هذه الحقيقة عندما نتخلى عن الاسلام يتخلى النصر عنا.

وتتجلى ظاهرة التخلى عن الإسلام أو هجره بوضوح فى محاولات قمع الفكر الإسلامى واستبعاده من الحياة النشطة المتوثبة، كما تبدو فى تحجيم الاسلام الى حالة من السلبية والتسطيح. ويمكن ملاحظة هذا بأكبر قدر من الوضوح فى طريقة تناولنا اليوم للقرآن وهو الفكرة المركزية فى الأيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية.

ولابد هنا من الإشارة إلى أن كل تقدم حدث فى الشعوب الاسلامية وكل عصر من عصور الإزدهار قد بدأ بالتأكيد على القرآن.. لم يكن امتداد الفتح الإسلامى- الذى ألمحنا الى مسلكه العبقري آنفا والذى استطاع خلال جيلين أن يصل إلى شواطئ الأطلسى فى الغرب وإلى أعماق الصين فى الشرق- لم يكن هذا المدّ هو المثل الأوحد

---

(٥٢) انظر القرآن الكريم: سورة الحشر: الآية رقم ٧

(٥٣) انظر القرآن الكريم: سورة الأنفال: الآية رقم ٥٣

بل المثل الأعظم لهذه الحقيقة. وكل التحولات الكبرى فى تاريخ الإسلام تؤكد هذه الحقيقة.

فماذا كان وضع القرآن في الفترة السابقة علي عصر الجمود والتقهقر؟

إن الإخلاص للكتاب لم يتوقف ولكنه فقد خصوصيته الفاعلة لقد استبقى الناس فى أفئدتهم من القرآن ما أشيع حوله من تصوف ولا عقلانية، فقد القرآن سلطانه كقانون ومنهج حياة واكتسب قداسته «كشيء».

وفى دراسة القرآن وتفسيره استسلمت الحكمة للمماحكات اللفظية، واستسلم الجوهر للشكل، وعظمة الفكر للمهارة والحفظ. وتحت التأثير المستمر للشكلية الدينية قلّت قراءة القرآن وكثر الاستماع الى تلاوته بصوت غنائى. أما ما يحث عليه القرآن من- جهاد واستقامة وتضحية بالنفس والمال، وهى أمور شاقة بغيضة الى النفوس الواهنة- كل ذلك قد ذاب وتلاشى فى ضباب الصوت الجميل لتلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب. هذه الحالة الشاذة قد أصبحت الان مقبولة كنموذج سائد بين الشعوب المسلمة. لأنها تتناسب مع أعداد متزايدة من المسلمين لا يستطيعون الانفصام عن القرآن ولكنهم من ناحية أخرى لا يملكون القوة أو الإرادة على تنظيم حياتهم وفق منهج القرآن.

ولعل التفسير النفسى لهذه المبالغة التى يخلعها الناس على التلاوة المنغَّمة للقرآن يكمن فى هذه الحقيقة. فالقرآن يتلى ثم يفسر ويتلى. ثم يدرس ويتلى مرة أخرى. وهكذا تتكرر الآية ألف مرة ومرة حتى لا نطبقها فى حياتنا مرة واحدة. . لقد أنشئ علم كبير لتحرى الدقة المتناهية فى نطق القرآن حتى نتجنب قضية كيف نمارس القرآن فــى حياتنا اليومية. وهكذا تحول القرآن [عندنا] إلى صوت مجرد من الوعى ضبابىّ المعنى.

إن واقع العالم المسلم بكل تناقضاته، وكل ما فيه من فصام بين الكلمة والفعل، وانحرافه عن الواجب، وشيوع الفساد والظلم والجبن، ومساجده الخالية وافتقاره الى المثل العليا وإلى الشجاعة، وانتشار الشعارات الاسلامية المثيرة والتشدد المتنطع فى أداء التكاليف الدينية، والاعتقاد بدون ايمان حقيقى فعّال- كل هذا ليس إلا انعكاسا خارجيا للتناقض الأساسى الذى احطنا به القرآن والذى يتمثل فى الحماس المشتعل للكتاب من ناحية والإهمال الكامل لمبادئه فى الممارسة العملية من ناحية أخرى.

إن وضع القرآن هذا هو السبب الأول والأكبر أهمية للتخلف والعجز الذى تعانيها الشعوب المسلمة. وهنالك سبب آخر ذو أهمية عامة وهو التعليم القائم أو بالأحرى نظام التربية بأوسع معانيه.

كانت شعوبنا ـ عبر قرون كثيرة مضت ـ محرومة من وجود أناس متعلمين تعليما صحيحا فعالا. وبدلا من ذلك توفر لهذه الشعوب نوعان آخران من الناس كلاهما غير مرغوب فيه: الجهال والمتعلمون تعليما خاطئا. فلا يوجد فى دولة مسلمة واحدة نظام تعليمى مُعَدٌّ إعداداً مناسبا قادرا على التجاوب مع الفهم الأخلاقى للإسلام أو التجاوب مع احتياجات الناس. فأصحاب السلطة عندنا إما أنهم قد أهملوا هذه المؤسسة بالغة الحساسية فى أى مجتمع، أو تركوها نهبا للأجانب يتصرفون فيها وفق مخططاتهم. فالمدارس التى يموِّلها الأجانب بتبرعاتهم ويوفرون لها المعلمين والمديرين الذين يجلبون معهم الأيديولوجية والمناهج، هذه المدارس لا تُعلِّم الناس ليكونوا مسلمين ولا حتى ليكونوا وطنيين. إنما يحقن النشء فيها «بفضائل» الطاعة والخضوع والانبهار بتقدم المجتمعات الأجنبية وسطوتها وثرائها. وفيها يُربَّون فى الصفوة عقلية التبعية لأنهم يعلمون أن هذه الصفوة ستحل مكانهم فى المستقبل بنجاح باهر، حيث يشعر أعضاء هذه الصفوة بأنهم أجانب فى بلادهم وسيتصرفون على هذا الأساس، ومِمَّاله دلالة كاشفة تلك الكثرة الكثيرة من المدارس التى يديرها الأجانب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. ولابد أن نتأمل فى أسباب هذا الكرم العجيب، وأن نتفحص مناهج هذه المدارس ونحلل محتواها تحليلا عميقا، وأن نتنبه إلى عدم اشتمالها على موضوعات بعينها. حينئذ سيتضح لنا تماما أن القضية الحقيقية ليست هى ما إذا كان أعضاء النخبة عندنا يرغبون فى أن يجدوا طريقا للوصول الى شعوبهم والتعرف على طموحاتها ومصالحها الحقيقية، ولكن القضية هى أنهم وقد تشكلوا على هذا النحو لا يمكن أن يهتدوا إلى هذا الطريق على الإطلاق والسبب يرجع إلى تلك القيم والمثل التى نشأت عليها هذه النخبة، والى تلك الفجوة النفسية التى أقيمت بينهم وبين شعوبهم. وهكذا لم يعد هناك ضرورة للسلاسل الحديدية لإخضاع شعوبنا فإن الخيوط الحريرية للتعليم الأجنبى لها نفس القوة.. إنها تشل عقول المتعلمين وإرادتهم. وبهذا الوضع للتعليم فإن الأجانب من أصحاب النفوذ واتباعهم من أبناء البلاد المسلمة ليس عندهم ما يخشونه على مراكز هم.. فبدلا من أن يكون التعليم مصدرا للتمرد والمقاومةيصبح أكبر حليف للأجانب وأتباعهم.

هذه الفجوة المأساوية بين النخبة وبين الشعوب فى البلاد المسلمة ـ وهى أحد أسوأ الملامح فى وضعنا العام ـ قد ترسّخت من الجانب الآخر. فبسبب إحساس المسلمين بخصوصية هذه المدارس رفضوها رفضا غريزيا.. ومن هنا أصبح النفور متبادلا. لقد قامت فى الغرب اتهامات غامضة بالنسبة لنفور البيئات المسلمة من المدرسة والتعليم.. والحقيقة ان القضية ليست نفورا بهذا المعنى وإنما هى نفور المسلمين من المدارس الأجنبية التى تفتقد كل صلة روحية بالإسلام وبالشعوب المسلمة.

لا مبالاة الجماهير المسلمة :

ما جاء به دعاة الحداثة الى عدد من البلاد المسلمة يعتبر - كقاعدة عامة - اتجاها «لا دينيا» يقودهم فى هذا شعارات معينة تنادى بفصل الدين عن الحياة السياسية والاجتماعية هذا الاتجاه يستدعى الى الذاكرة قصة الصراع الذى نشب بين الدول القومية وبين الكنيسة الأوربية فى مستهل العصر الحديث. لكن ذلك الذى كان يعنى تقدما ومتفقا مع الأوضاع التاريخية فى الغرب كان بالنسبة للعالم الاسلامى عملية غير طبيعية، تعجز عن إحداث أى تغيير إيجابى فى حياة شعوب هذا العالم. فالقوميات . . وكبح سلطان الدين والكنيسة الذى كان يعنى كل شىء فى تاريخ الغرب الحديث لا يعنى شيئا على الإطلاق فى تاريخ العالم الاسلامى، ولأن هاتين الفكرتين (القومية وعزل الدين عن الحياة العامة) فكرتان غريبتان فى اصلهما وتكوينها، وكانت انعكاساتهما فى العالم المسلم عقماً روحيا عاما. وباستزراعهما فى أرض المسلمين ارتفع الستار عن الفصل الأخير في مأساة العالم المسلم. إننا يمكن ان نسمى هذا الفصل «العلاقة المزدوجة» أو التوافق الداخلى بين عناصر الفكر والقيادة فى المجتمع من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى، حيث تمثل النخبة القائدة الفكر والارادة بينما تمثل جماهير الشعب القلب والدم، وبتعاونهما معا بتحقق الشرط الأول لأى إنجاز عظيم وبدون هذا التعاون أو على الأقل بدون رضاء الجماهير تبقى الأعمال مصطنعة مفتقرة إلى القوة الضاربة. ويمكن التغلب على سلبية الجماهير وركودها إذا كان ذلك مجرد نتيجة للمقاومة الطبيعية للعمل الشاق أو الهرب من مخاطر الكفاح. ولكن يستحيل التغلب على هذه السلبية إذا كانت تمثل رفضا لأهداف الكفاح نفسها، لأن الجماهير حينذاك سترى هذه الأهداف متعارضة مع أعز رغباتها ومشاعرها الحميمة.

هذه الحالة الأخيرة التى نشهدها اليوم - بدرجات متفاوتة - فى جميع البلاد المسلمة، حيث يحاول أدعياء الحداثة تنفيذ برامجهم الدخيلة فتراهم يلجأون الى منافقة الجماهير أحيانا وإلى التهديد أحيانا أخر. . يدافعون ويحثون، يقيمون التنظيمات ثم يهجرونها إلى تنظيمات أخري. . يغيرون الأسماء والشخصيات. . ولكن يضربون برؤوسهم دائما فى صخرة الرفض العنيد واللا مبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى للأمة. نذكر هنا على سبيل المثال «الحبيب بورقيبة» كنموذج لاتجاه شائع فى بلاد المسلمين. كان «بورقيبة»[٥٤] يلبس الملابس الأوربية ويتكلم

(٥٤) كان رئيسا لجمهورية تونس منذ الاستقلال حتى طعن فى السن أصابه الخرف فأطاح به انقلاب سلمى قام به وزير داخليته الذى تولى رئاسة الجمهورية ثم تابع مسيرته والعجيب أن بورقيبة كان يطلق على نفسه لقب«المجاهد الأكبر»! «المترجم»

الفرنسية فى بيته، وكان حريصا على أن يعزل تونس لا عن العالم الإسلامى فقط بل عن العالم العربى أيضا، حاصر التعليم الدينى وقيَّده. وكان يدعو لإلغاء الصوم فى رمضان لأن الصيام- كما يزعم- «يقلل الإنتاج»، ولكى يجعل من نفسه قدوة مناسبة قام بشرب عصير البرتقال علانية (على شاشة التليفزيون) فى نهار رمضان. وبعد كل هذا يتعجب «بورقيبة» من سلبية وانعدام التأييد من جانب الجماهير التونسية المسلمة لإصلاحاته «التقدمية»! . حقا إن أدعياء الحداثة لو لم يكونوا بهذا العمى لبطل عجبهم. . !.

إن الشعوب المسلمة لن ترضى بأى شىء يخالف الإسلام(٥٥)، لأن الإسلام ليس مجرد مجموعة من الأفكار والقواعد والقوانين، وإنما يتجاوز هذا كله ليصل- فى الإنسان المسلم- إلى مكامن حبه وعميق مشاعره، وكل من ينهض ضد هذا الدين لن يجنى من عمله سوى الكراهية والمقاومة.

لقد خلق دعاة الحداثة حالة من الصراع الداخلى والاضطراب فى المجتمعات المسلمة بحيث أصبح كل برنامج (إصلاحى) سواء أكان اسلاميا أم أجنبيا غير قابل للتطبيق. فالجماهير تتطلع إلى مشروع اسلامى ولكنهم لا يستطيعون القيام به وحدهم بدون نخبة تقودهم، والنخبة- من ناحية أخرى- تفرض على الجماهير برامج أجنبية ولكنها لا تجد من هذه الجماهير استعدادا لكى يسهموا بعرقهم ودمائهم وحماسهم لتنفيذ هذه البرامج المستغربة فتبقى أبدا حبرا على ورق. . وهكذا تظل القوتان فى تصادم. . تلغى إحداهما الأخرى. . وتبقى على الساحة حالة من الشلل والعجز.

والحق أن هذه الساحة (التعيسة) يمكن أن تشهد نظاما حيا وازدهارا وتقدما. .

---

(٥٥) فى مقال نشر بالأهرام فى ١٩ يناير ١٩٩٤ للدكتور فؤاد زكريا وهو أحد أعمدة العلمانية يعجب لحقيقة ويقرر حقيقة أخرى: فهو يقرر- مصيبا- أن العلمانيين قد أجهدوا أنفسهم من الكلام ولكن أحدا لا يستمع إليهم كأنهم يخاطبون بعضهم بعضا. ويعجب من أن العلمانية قد أحيطت بكل صفة سيئة بدون وجه حق، ونحن لا نرد عليه فقد تكفل بذلك أ. د. يوسف القرضاوى فى كتابه: «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» فإذا كان لنا أن نضيف شيئا فإننا نحيل القارئ إلى كتاب آخر للمستشار طارق البشرى بعنوان «مشكلتان وقراءة فيهما» حيث يؤكد لنا التاريخ المعاصر أن النخب والفصائل العلمانية قد حكمت بنفسها أجزاء كثيرة من بلادنا وشايعت مختلف الأنظمة والدكتاتوريات العسكرية والحزبية ومنحتها رضاها وتأييدها وهى تنكل بالجماهير. . وبمجرد أن لاح احتمال وصول الاسلاميين إلى السلطة عبر صناديق الانتخاب وقفت هذه الفصائل صراحة ضد الديمقراطية وهب بعضهم يستعدى السلطات الدكتاتورية والأقليات البوليسية لا على الإسلاميين فحسب بل على الامة كلها بل إنهم يستنفرون الأقليات العرقية والدينية ضد الغالبية المسلمة. . فهل بقى من عجب عند قادة العلمانية!؟ «المترجم».

ولكن لن يكون هذا النظام أو الازدهار والتقدم أوربيا أو أمريكيا. . كلا. . فإن سلبية الجماهير المسلمة ليست سلبية مطلقة وإنما هى فى حقيقتها الطريقة التى يدافع بها الإسلام الشعبى عن نفسه ضد الهجمات الخارجية والأجنبية. ولكن ما أن يظهر احتمال لجهاد اسلامى حقيقى فإن الإنسان البسيط يبرهن على استعداده للجهاد والمعاناة بل الموت. وتوجد فى التاريخ الحديث أمثلة كثيرة على هذا الموقف رأيناها فى تركيا عندما هبت للنضال التحريرى ضد اليونان بعد الهزيمة التى لحقت بها خلال الحرب العالمية الأولى، ورأيناها فى المقاومة البطولية للشعب الليبى ضد الاحتلال الإيطالى، ورأيناها فى جهاد الفدائيين ضد الإنجليز فى قناة السويس، وفى حرب التحرير الجزائرية، وفى تحرير أندونيسيا وفى الهيمنة الإسلامية فى باكستان. وحيثما يراد استثارة حماس الجماهير كانت ترفع الشعارات الإسلامية حتى وإن كانت مؤقتة أو غير مخلصة. وهكذا أينما وجد الإسلام تختفى السلبية واللامبالاة.

إن المشاعر القوية عند الجماهير المسلمة تحتاج الى فكرة تحفزها وتوجهها. . ولكن لن تكون هذه مجرد أى فكرة، وإنما يجب ان تكون فكرة تتجاوب مع أعمق المشاعر الإسلامية ومن ثمَّ لابد أن تكون فكرة إسلامية.

ولسنا نرى فى الأوضاع الراهنة إمكانية حدوث أى توافق بين الجماهير المسلمة وبين المثقفين والمفكرين والسياسيين المستغربين فلا أحد من الجانبين لديه الاستعداد لكى يتخلى عن موقفه مهما طالت حالة التوقع والحيرة. ولكن هناك طريقاً واحداً للخروج من الأزمة وهو تكوين نخبة جديدة تفكر وتشعر إسلاميا. . هذه النخبة سترفع راية النظام الإسلامى مع الجماهير المسلمة وتتخذ الخطوات العملية لتطبيقه.

الفصل الثانى
النظــــام الإســــلامى

الدين والقانون :

«النظام الإسلامى» . . ترى ما الذى نعينه بهذه العبارة إذا التزمنا باللغة التى يفكر بها الجيل الحالى ويتحدث ويشعر بها؟ إن أكثر التعريفات للنظام الإسلامى إيجازا هى الوحدة بين الدين والقانون . . بين التربية والسلطة . . بين المثل الأعلي والمصلحة . بين الجماعة الروحية والدولة . . بين الإرادة والقوة . والنظام الاسلامى باعتباره المركب من هذه المكوّنات جميعا يفترض فرضين اساسيين : مجتمعا إسلاميا وحكما إسلاميا . . الأول هو مادة النظام والثانى هو شكل هذا النظام، فالمجتمع الإسلامى بدون السلطة الإسلامية مجتمع ناقص مفتقر الى القوة . . والحكم الإسلامى بدون مجتمع إسلامى إما أن يكون «طوبيا» خيالية وإما عنفا وقهرا .

وبصفة عامة لا يوجد المسلم كشخص مفرد، . فإذا أراد أن يحيا وأن يستمر فى البقاء كمسلم عليه أن يخلق بيئته . . أن يقيم جماعة ونظاما . فالمسلم بين خيارين لا ثالث لهما : إما أن يغيّر العالم وإما أن يستسلم للتغيير .

ولم يحدث فى التاريخ وجود حركة إسلامية حقيقية صادقة مع نفسها لم تكن فى نفس الوقت حركة سياسية . ذلك لأن الإسلام بطبيعته وإن كان دينا إلا أنه فى نفس الوقت فلسفة حياة . . كما أنه نظام أخلاقى . . وتنظيم . . وأسلوب . . ومناخ . . إنه - فى كلمة واحدة - طريقة حياة متكاملة ولا يستطيع الإنسان أن يكون مؤمنا بالإسلام ثم يتصرف ويتعامل مع الناس ويستمتع بوقته أو يحكم بطريقة غير إسلامية . فهذه الحال المتنافرة تورّث النفاق (نحمد الله ونثنى عليه فى المسجد ونخادعه خارج المسجد) . . ! إنها حالة تنتج أناسا تمزقت نفوسهم بالصراعات المهلكة . . فهم لا يستطيعون التنكر للقرآن من ناحية، ولا يجدون فى أنفسهم القدرة على الجهاد لتغيير الظروف التى يعيشون فيها من ناحية أخرى . . أو تنتج أناسا كالرهبان (ينسحبون من الدنيا لأن الدنيا

ليست إسلامية) . . وهناك نوع ثالث من الناس شعروا بأن المعضلة تطوقهم من اقطارهم فانفكوا عن الإسلام وتقبلوا الحياة والعالم كما وجدوهما . . أو بالأحرى كما صنعهما لهم الآخرون.

النظام الإسلامى- على عكس ذلك- مجتمع متحرر من هذه الصراعات . . فهو إطار من العلاقات يجد المسلم فيه نفسه على اتِّساق مع بيئته .

فإذا سأل سائل : ما المجتمع المسلم؟ نقول إنه المجتمع المؤلف من المسلمين، ونعتقد أننا بهذه العبارة نجيب على السؤال إجابة كاملة أو قريبة من الكمال .

ويعنى هذا التعريف أنه لا يوجد نظام مؤسسات وعلاقات وقوانين منفصلا عن الناس الذين هم هدف هذا النظام ثم يقال ان هذا نظام إسلامى، فلا يوجد نظام إسلامى ولا غير إسلامى قائم بذاته . . وإنما يكون النظام إسلاميا أو غير إسلامى فقط بالناس الذين يؤلفون هذا النظام .

يؤمن الأوربى بأنه فى الإمكان تنظيم المجتمع بقوة القانون . فمنذ جمهورية أفلاطون وما تلاها من أفكار طوباوية بما فى ذلك الاشتراكية الماركسية- منذ ذلك الزمن البعيد إلى الآن والروح الأوربية دائبة البحث عن نموذج واحد يمكن بواسطته تغيير العلاقات بين الناس والجماعات لإيجاد مجتمع مثالى .

أما القرآن فإنه يشتمل على عدد قليل من القوانين (الأحكام) بينما ينصب فى معظمه على العقيدة ومبادئ الدين، مع حفز للمؤمنين على أن يتخذوا من الإجراءات العملية لإقامة حياتهم ومجتمعهم على أساس من هذه المبادئ .

إن كثرة القوانين فى مجتمع ما وتشعبها والتعقيدات التشريعية علامة مؤكدة على وجود شيء فاسد فى هذا المجتمع وفى هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء فى تعليم الناس وتربيتهم . فعندما يتجاوز الفساد فى بيئة ما حداً معينا يصبح القانون عقيما، فيسقط فى يد فئة فاسدة من منفذى العدالة أو يصبح خاضعا للتحايل الظاهر أو الخفىّ من جانب بيئة فاسدة .

لقد كانت الخمر والميسر والشعوذة رذائل متفشية وعميقة الجذور فى بلاد العرب أيام الجاهلية، فلما جاء الإسلام قضى عليها القرآن بآية واحدة وبتفسير واحد : (أن الله قد حرم هذه الرذائل جميعا)[٥٦] ولكن ما ان ضعف الدين حتى عادت هذه الرذائل بكامل قوتها ولم يعق تفاقمها ارتفاع المستوى الثقافى الذى حققته هذه المجتمعات كما لم يفلح

---

(٥٦) ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

قانون تحريم الخمر الأمريكى الذى أعلن باسم العلم الحديث والذى قامت على تنفيذه- بكل قوتها- مجتمعات على أكبر درجة من التنظيم فى العالم، ولكنها أجبرت فى النهاية على التخلى عن هذه القوانين فى الأربعينيات من هذا القرن بعد محاولات لا جدوى منها كانت حافلة بالعنف والجرائم. ولقد جرت محاولة مثيلة لتحريم الخمر فى الدول الإسكندناوية انتهت هى أيضا بالفشل الذريع.

تلك وأمثله أخرى تعرض لنا بوضوح أن المجتمع لا يمكن إصلاحه إلا باسم الله وعن طريق تعليم الإنسان وتربيته، وعلينا أن نسلك الطريق الذى يؤدى بنا إلى هذه الغاية.

إن الإسلام- رغم أنه يؤكد على المدخل الروحى الجوانى[٥٧] فى كل تعاليمه إلا أنه لم يتوقف عند هذا الحد وإنما اتجه لتحطيم السلاح الذى يمسك به الشيطان. إن الإسلام إذا لم يبدأ بالإنسان فى الأمور التى تتعلق بعلاقة الإنسان بالعالم فإنه لا يكون «دينا» ولكن أن يقف هذه النقطة فقط فإنه يصبح دينا مجردا.. أو يكون مجرد تكرار أو إعادة لتعاليم عيسى عليه السلام التى تركز على الجانب المثالى والخالد فى الكائن الإنسانى.

لقد جمع الاسلام فى خطابه بين الإنسان الحى المتكامل كما صوره القرآن وتمثل فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبين الطبيعة أو العالم الخارجى فكان بذلك تعبيرا عن الإنسان الكامل وعن الحياة فى جميع وجوهها.. وفى هذا الإطار توحّد الإيمان مع القانون وتوحد التعليم والتربية مع السلطة، وبذلك أصبح الإسلام نظاما.

ليس الإسلام مجرّد دين:

يمثل الإسلام فى تاريخ تطور الأديان نقطة تحوّل لا جدال فيها، فهو يختلف عن غيره من الأديان والمذاهب والفلسفات جميعا، لقد جاء الإسلام بمدخل يعكس فلسفة جديدة كل الجدّة. تتطلب هذه الفلسفة من الإنسان أن يحبا- فى وقت واحد- حياته الجوانبة والبرانية.. الحياة الأخلاقية والحياة الاجتماعية.. الحياة الروحية والمادية معا،

(٥٧) «الجوانية» مصطلح ظهر لأول مرة فى محاضرات الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة فى الخمسينات ثم صاغه فى كتاب سماه «الجوانية» ويقصد بهذا المصطلح كل ما هو جوهرى وأصيل بالنسبة للإنسان باعتباره كائنا أخلاقيا حرا ومسئولا فى مقابل ما هو «برانى» أى ما هو ظاهرى وزائف فى حياة الإنسان« المترجم».

وبدقة أكثر تقتضى هذه الفلسفة من الانسان ان يتقبل بوعى كامل وإرادة كاملة جميع جوانب هذه الحياة باعتبار أنها تحقق انسانيته وتؤكد المعنى الحقيقى لحياته فى هذه الدنيا: ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيّبات من الرّزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفصّلُ الآيات لقوم يعلمون﴾(٥٨)، ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾(٥٩).

وبترجمة هذا إلى لغة الحياة اليومية يمكن أن نقول: إن الذى يؤمن بأن الحياة يجب تنظيمها- ليس بالإيمان والصلاة فحسب ولكن أيضا- بالعلم والعمل، والذى تتسع رؤيته للعالم بحيث يستوعب بل يدعو الى قيام المسجد والمصنع جنبا الى جنب، والذى يرى أن الشعوب لا يكفى إطعامها وتعليمها فقط وإنما يجب أيضا تيسير حياتها والمساعدة على سموها الروحى، وأنه لا يوجد مبرر للتضحية بأحد هذه الأهداف فى سبيل الآخر، هذا الانسان ينتمى حقا إلى الإسلام.

فإذا أضفنا إلى ذلك «الإيمان بالله» تمثلت أمامنا الرسالة الأساسية للقرآن التى تنطوى على الإسلام فى جملته، وما عدا ذلك إنما هو تفصيل للمجمل وبيان له.

هذا «السيناريو» الإسلامى- إلى جانب اشتماله على مبدأ النظام الإسلامى- يؤدى اقتران الدين والسياسة فيه إلى نتائج أخرى بارزة ذات أهمية مبدئية وعملية كبرى.

أول وأهم هذه النتائج هى بالتأكيد تنافر الإسلام مع أى نظم «لا إسلامية» فلا يمكن أن يوجد سلام أو تعايش بين الدين الإسلامى وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللا إسلامية. ولقد كان إخفاق هذه المؤسسات فى عملها وعدم استقرار أنظمة الحكم فى البلاد المسلمة- كما يتضح فى التحولات والانقلابات العسكرية المتوالية- هو فى الأغلب نتيجة لمجافاتها لروح الإسلام الذى يشكل أعمق المشاعر وأكثرها أصالة عند الشعوب فى هذه البلاد.

إن الإسلام وهو يؤكد حقه فى تنظيم دياره بنفسه من الواضح أنه يستبعد أى أيديولوجية أجنبية تحاول العمل فى مجاله الحيوى الخاص. ومن ثم فلا مكان

---

(٥٨) سورة الاعراف: آية رقم ٣٠، ٣١.

(٥٩) سورة القصص: آية رقم ٧٧.

للعلمانية[٦٠] فى ساحة الإسلام، وعلى الدول (المسلمة) أن تلتزم بمفاهيم الأخلاق الدينية وأن تقوم بتعزيزها.

تلك هى أول نتيجة لفهم الاسلام كنظام متكامل، أما النتائج الثلاث الباقية التى قد تساويها فى الأهمية وإن كانت أقل درجة فى حصرها فنلخصها فيما يلى:

أولا: عندما توجّه الاسلام إلى هذه الدنيا أمرنا بتنظيمها على أحسن طراز ممكن من التنظيم، فلا شىء يمكن أن يجعل الدنيا أفضل حياة ثم يرفضه المسلم بدعوى أنه غير اسلامى.

ثانيا: أن تنفتح على الطبيعة معناه أن تنفتح على العلم والمعرفة، ولكى يكون الحل إسلاميا لابد أن يتحقق فيه شرطان: أن يكون على أكبر درجة من الكفاءة وعلى أقصى درجة من الإنسانية فى نفس الوقت، ومن ثم لابد أن يعكس توافقا على أعلى مستوى بين العلم والدين.

ثالثا: إن الإسلام بما تنطوى عليه طبيعته من تزاوج بين الدين والعلم.. بين الأخلاق والسياسة.. بين الفرد والمجتمع.. بين الروحى والمادى (وتلك هى القضايا التى تشطر العالم بلا رحمة الى شطرين متصارعين)- هذا الإسلام يستعيد دوره كفكر وسط بين الأفكار المتنازعة ويستعيد العالم الاسلامى دوره كأمة وسط فى هذا العالم المنقسم على نفسه- إن الإسلام وهو الذى يبشر بدين يخلو من الأساطير وبعلم يخلو من الإلحاد يمكن ان يكون مثار اهتمام الناس جميعا من كل لون وجنس.

إشكاليات النظام الاسلامى فى الوقت الراهن:

توجد مبادئ إسلامية لا تتغيّر هى التى تحدد العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والجماعة، ولكن لا توجد نظم إسلامية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية

(٦٠) نحيل القارئ إلى هامش رقم «٦» بنفس الفصل ونشير أيضا إلى مقال للدكتور مصطفى النشار الذى نشر بعدد الأهرام الصادر فى ١٦ يناير ١٩٩٤ تحت عنوان «التنويريّون العرب وأهدافهم الحقيقية» فهو يرى أن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالتنويريين يشنون حملة ضد الإسلام نفسه وضد الاسلاميين بصفة عامة تحت ستار زعمهم بأنهم يحاربون فقط بعض الاسلاميين وأفكارهم الهدامة.. وقد ظهر مؤخرا كتاب يكشف عن مفارقات مذهلة للوجه الحقيقى القبيح للعلمانيين العرب، ويناقش افكارهم ومواقفهم وأهدافهم، ولا ننسى أن تلفت نظر القارئ إلى ضرورة التفرقة فيما بين هؤلاء العلمانيين، فمنهم المعتدلون والمتطرفون والغلاة. انظر كتاب فهمى هويدى «المفترون: خطاب التطرف العلمانى فى الميزان» القاهرة: دار الشروق ١٩٩٦ «المترجم».

منزّلة ، فالمصادر الإسلامية لا تحتوى على أى وصف لهذه النظم . وستختلف الطريقة التى سيدير بها المسلمون اقتصادهم وينظمون بها مجتمعهم ويدبرون شئون الحكم فى المستقبل عن الطريقة التى أداروا بها الاقتصاد ونظموا المجتمع وحكموا فى الماضى . ومهمة كل جيل فى كل عصر أن يستحدث من الطرق والوسائل لتطبيق المبادئ الأساسية للإسلام التى لا تتغير فى عالم لا خلود فيه بل خاضع للصيرورة الدائمة .

وعلى جيلنا أن يتقبل المخاطرة وأن يقوم بالمحاولة .

ولأننى على وعى بقصور التعريفات المتعلقة بهذه المبادىء لذلك أحصر مهمتى فى إطار عرض للمبادئ التى تبدو الآن ذات أهمية كبرى بالترتيب التالى :

(١)

الإنسان الفرد والجماعة

المجتمع الإسلامى جماعة منظمة من المؤمنين . وليس ثمة خلاص خارجى للإنسان والمجتمع باسم العلم أو الثورة أو الاشتراكية . فأى خلاص لا يتضمن تحوّلا نحو حياته الجوانية وإعادة تشكيل الإنسان وتجديد حياته الروحية هو خلاص مزيّف .

المجتمع الإسلامى لا يمكن إقامته على أساس من المصالح الاقتصادية والإجتماعية فحسب ولا على أى أساس خارجى تقنى آخر . ذلك لأن هذا المجتمع يتضمن فى بنيته على عنصر دينى ووجدانى للانتماء . ويبدو هذا العنصر أكثر ما يكون وضوحا فى «الجماعة» الروحية باعتبارها النواة الأساسية فى بناء المجتمع الإسلامى .

فعلى خلاف المجتمع التجريدى الذى يرتبط الأعضاء فيه بعلاقات برانية نجد أن الجماعة (الإسلامية) مجتمع جوانى حقيقى يقوم على أساس من العضوية الروحية ، حيث العلاقة فيه بين الناس هى علاقة تآلف شخصى مباشر ، فهى علاقة إنسان بإنسان وليست علاقة عضو مجهول فى مجتمع تجاه عضو آخر مساو له فى المجهولية[٦١] إن الجماعة ـ كوسيلة للتعارف والتقارب بين الناس ـ تسهم فى توحيد المجتمع وإشاعة الألفة فيه ، كما تساعد على تبديد الشعور بالعزلة والاغتراب الناتج من التوسع فى استخدام التطبيقات التقنية والحياة الحضرية المتنامية .

وفضلا عن ذلك تخلق الجماعة نوعا من الرأى العام يعمل دون اللجوء إلى العنف ـ

---

(٦١) لمزيد من التفصيل فى التفريق بين المجتمع والجماعة انظر كتاب «الاسلام بين الشرق والغرب» للمؤلف، ص ٢٥٠ .

ولكن بفاعلية- ضد من تحدثه نفسه الخروج على المعايير الاجتماعية والأخلاقية. في الجماعة لا يوجد أحد بمفرده، وهذه حقيقة ذات معنيين: فالإنسان ليس وحده يفعل ما يحلو له، ولا وهو وحده، محروما من المؤازرة المادية والمعنوية. فإذا لم يشعر مسلم بأنه قريب من الآخرين فذلك يعنى أن المجتمع المسلم قد أخفق (فى تحقيق الأخوة الإسلامية).

يريد الاسلام أن يمد الإنسان يد العون إلى أخيه الإنسان بطريقة عفوية مخلصة. وإلى أن يتحقق هذا لا يصح أن نعتبر أنفسنا قد كسبنا شيئا فى إسلامنا على وجه الحقيقة. إن الإسلام لا يتلاءم مع موقف يتوجّب فيه على الدولة أن تتدخل -بصفة دائمة- بقوتها لحماية الناس بعضهم من بعض، فذلك وضع قد يقبله الإسلام بصفة مؤقتة وتحت ظروف معينة، فالقوة والقانون أداتان للعدالة، أما العدالة نفسها ففى قلب الإنسان، فإذا لم توجد فيه فلا وجود لها على الإطلاق.

(٢)

المساواة بين الناس

لقد قرر القرآن حقيقتين على درجة قصوى من الأهمية هما وحدانية الله والمساواة بين الناس- قرر القرآن هاتين الحقيقتين بوضوح وصراحة لا لبس فيهما بحيث لا يمكن تفسيرهما إلا تفسيرا حرفيا واحدا: لا إله إلا الله، وأنه لا يوجد شعب مختار أو جنس أو طبقة متميزة- فالناس جميعا سواسية.

إن الإسلام لا يقبل تقسيم الناس أو تصنيفهم طبقا لمواصفات خارجية موضوعية كالطبقة. فالإسلام باعتباره حركة دينية أخلاقية يرى أنه من غير المقبول وجود أى تمييز بين الناس لا ينطوى على معيار أخلاقى. فإذا كان الناس مختلفين حقا فإنه يجب التمييز بينهم على أساس من هم على وجه الحقيقة.. أعنى التمييز بينهم من حيث قيمتهم الروحية والأخلاقية ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[٦٢] فجميع الناس المستقيمين بصرف النظر عن الطريقة التى يكسبون بها قوتهم اليومى ينتمون إلى جماعة واحدة، كما ينتمى جميع الأشرار والفاسدين إلى طبقة واحدة بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية أو مواقعهم فى العمل.

---

(٦٢) سورة الحجرات: آية رقم ١٣

إن التمييز الطبقى شأنه كشأن التمييز العنصرى وغيره من أشكال التمييز المختلفة بين الناس - غير مقبول سواء من الناحية الأخلاقية أو الإنسانية .

(٣)

الأخوّة بين المسلمين

﴿إنما المؤمنون إخْوة فأصلحوا بين أخـويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ (٦٣) إن القـرآن بهذه الرسالة يشير إلى غاية ـ لبعد مداها ـ تعتبر مصدر إلهام للتقدم الإنسانى المستمر. ولكى نقصّر المسافة إلى الأخوّة المنشودة لابد من إحداث تغييرات هائلة فى داخل الناس وخارجهم .

إننا نرى فى مبدأ الأخوّة حق المجتمع الإسلامى والتزامه بإقامة المؤسسات المناسبة واتخاذ الإجراءات التى تمكّن العلاقة بين المسلمين والحياة العملية من استيعاب المزيد من عناصر الأخوّة وملامحها . إن أنواع وعدد الإجراءات والمبادرات والقوانين التى يمكن للإدارة الإسلامية الحقّة أن تقوم بها ـ فى إطار الأخوّة الإسلامية ـ لا حصر لها .

ونشير هنا إلى نموذج يقف على النقيض من نموذج الأخوّة الإسلامية ألا وهو النظام الإقطاعى وهو نموذج متطرف ، فالعلاقة فى هذا النظام بين التابع وسيدّه الإقطاعى ليست علاقة أخويّة ، وإنما هى علاقة عبودية ، وهى بهذا الاعتبار علاقة متناقضة مع القرآن تناقضا صريحا ، كما أنها متناقضة مع مبدأ الأخوّة والمساواة الذى يدعو إليه القرآن .

(٤)

وحدة المسلمين

يشتمل الاسلام على مبدأ الأمة بمعنى التوجه لتوحيد جميع المسلمين فى جماعة واحدة من الناحية الدينية والثقافية والسياسية . ولا يعتبر الإسلام جنسية لهذه الجماعة وإنما هو أسمى من ذلك بالنسبة لها .

وكل ما يبثّ الفُرقة والنزاع بين أعضاء هذه الجماعة سواء ما كان منه متّصلا بالأفكار

(٦٣) سورة الحجرات : آية ١٠ .

«كالفرق والمذاهب والأحزاب وغيرها»، أو متّصلا بالأشياء المادية «كالتفاوت الهائل فى الثروة أو المراكز الإجتماعية وغيرها» فهو مخالف لهذا المبدأ ومن ثَمّ فمن الواجب تقييده أو إلغاؤه.

ثمة عنصران جوهريان يحددان الخط الفاصل بين الاتجاهات الإسلامية والنزعات المضادة للإسلام فى حاضر العالم المسلم. هذان العنصران هما الإسلام أولا ثم الجامعة الاسلامية ثانيا. وتكون الجماعة أقرب إلى الإسلام كلما خضعت فى تنظيم علاقاتها الداخلية للإسلام وفى علاقاتها الخارجية لفكرة الجامعة الإسلامية. وبذلك يصبح الإسلام عقيدتها والجامعة الإسلامية سياستها.

(٥)

الملكيّـــة

رغم أن الإسلام يُقرّ الملكية الخاصة إلا أن المجتمع الإسلامى الجديد ينبغى عليه أن يعلن بوضوح لا لبس فيه أن جميع مصادر الثروة العامة وعلى الأخص المصادر الطبيعية يجب أن تكون ملكا للمجتمع وأن تخدم مصالح أعضاء المجتمع كافة. ورقابة المجتمع على مصادر الثروة أمر هام لمنع تكديس الثروة والقوّة لدى الأفراد بغير وجه حق، ومن ناحية أخرى لضمان الموارد المالية اللازمة لبرامج التنمية فى مختلف المجالات التى سيضطلع بها المجتمع، تمشيا مع الدور المتعاظم الذى تقوم به المجتمعات «الحديثة». على الرغم من الاختلاف فى النظم والتطبيقات تسهم المجتمعات المختلفة فى عدد متزايد من المشروعات العامة الكبرى، سواء فى الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى «سابقا» أو السويد.

ويدلّنا هذا على أن المسألة لا تتعلق بأيديولوجية أو نظام سياسى معين، وإنما هى الضرورة التى انبثقت من تطور حياة المجتمعات الإنسانية فى العالم المعاصر.

وتخضع الملكية الخاصة لقيد آخر استنادا إلى تعاليم القرآن ألا وهو ضرورة استخدامها فى الصالح العام:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم﴾(٦٤) فالإسلام لا يعترف بالملكية الخاصة «المطلقة» بمفهومها فى القانون الرومانى وإنما على

---

(٦٤) انظر سورة التوبة: آية ٣٤

النقيض من ذلك حيث تحّرم الشريعة الاسلامية «سوء استخدام الملكية» وتلزم صاحبها «باستخدام ثروته فى الصالح العام» والنتائج العملية لهذا الفرق بعيدة المدى بالنسبة للسلطة الاسلامية الحقيقية. واستنادا إلى هذه الحقيقة وإلى ما قرره القرآن فى الآية السابقة يمكن اتخاذ جميع الاحتياطات القانونية والإجراءات العملية ضد سوء استخدام الملكية أو اكتناز الثروة وحجبها عن الاستخدام.

ستصبح محاربة الظلم وعدم المساواة وعلى الأخص محاربة الترف والبذخ الذى يستفحل وسط البؤس والفقر «باعتبارهما من عوامل تدمير المجتمع وتمزيق وحدته» ستصبح معيارا لبقاء النظام ومقياسا للقيم الحقيقية للموقف الاخلاقى والاجتماعى الذى يمثله.

(٦)
الزكاة والربا

من الأحكام الإسلامية القطعية التى لها طابع اجتماعى: فريضة الزكاة وتحريم الربا.

تقرّر الزكاة مبدأ المسئولية المتبادلة بين المسلمين ووجوب اهتمام الناس بمصير بعضهم بعضا. وطالما قد تقرّر هذا المبدأ فإنه يصبح بذلك أساسا لصور جديدة مختلفة من صور الرعاية تتلاءم مع درجة تطور المجتمع وتنوع حاجاته والاحتمالات الطارئة.

فى عالم المسلمين اليوم أصبحت الزكاة تُعتبر شأنا من الشئون الخاصة بالأفراد، وفى المناخ الاجتماعى والدينى الراهن توقفت الزكاة عن أداء وظيفتها الصحيحة ولم تعد تؤتى ثمارها المنشودة. وأصبح غياب الزكاة واضحا فى كل مجال من مجالات الحياة. أما فى النظام الإسلامى. فتُعتبر الزكاة قانونا عاما لابد من ضمانٍ لأدائها بكل الوسائل المتاحة بما فى ذلك استخدام القوة إذا لزم الأمر.

وبتحريم الربا تقرّر مبدأ من مبادئ النظام الإسلامى:

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون﴾ (٦٥). ويتضمن هذا المبدأ تحريم أى دخل من الفوائد المحددة سابقا، وتحريم أساليب الحياة

(٦٥) انظر سورة البقرة: آية ٢٧٨، ٢٧٩.

الطفلية . . أعنى اكتساب الثروة استناداً إلى مجرد الحيازة مما يتنافى مع الأسس الأخلاقية التى يقوم عليها النظام الإسلامى .

(٧)

المبدأ الجمهورى

فيما عدا الملكية لا يعترف الإسلام بأى مبدأ للإرث ولا أى سلطة ذات امتياز أو حقوق مطلقة ، فالإقرار بالسلطة المطلقة لله يعنى الإنكار المطلق لكل سلطة أخرى مطلقة : ﴿اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون﴾[٦٦] ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إيّاه ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾[٦٧] ويقول محمد صلى الله عليه وسلم : «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

نستطيع أن نتبين فى تاريخ عهد الخلفاء الراشدين الأربعة «ولعله العهد الوحيد الذى شهد نظاما إسلاميا أصيلا» ثلاثة وجوه أساسية من المبدأ الجمهورى فى الحكم :

١ - رئيس دولة مُنتخب .

٢ - مسئولية رئيس الدولة أمام الشعب .

٣ - التزام كل من رئيس الدولة والشعب معا بالعمل فى الشئون العامة للمجتمع . وقد صرح القرآن بذلك تصريحا واضحا فى هذه الآية : ﴿فبما رحمة من الله لنّت لهم ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر..﴾ [٦٨] وفى آية أخرى : ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ . [٦٩]

إن الخلفاء الأربعة الأوائل فى التاريخ الاسلامى لم يكونوا ملوكا ولا أباطرة وإنما تم انتخابهم بواسطة الأمة ، أما الخلافة الموروثة فكانت إهدارا لمبدأ الانتخاب الذى تأكد بوضوح كنظام سياسى إسلامى .

---

(٦٦) سورة الاعراف : آية ٣.

(٦٧) سورة يوسف : آية ٤٠ .

(٦٨) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٦٩) سورة الشورى : آية ٣٨.

(٨)

لا إله إلا الله

كلما سلّمنا بأن إقامة نظام إسلامى هدف لا جدال فيه ولا مناص منه كلما ازداد يقيننُا برفض عصمة الشخصيات العامة بصرف النظر عن جدارتهم وفضلهم وعن المراكز التى يشغلونها فى المجتمع. والنظام الإسلامى - بهذا المعنى - مركب من سلطة مطلقة «بالنسبة للبرنامج» ومن ديمقراطية مطلقة «بالنسبة للفرد»[٧٠].

ولا يعترف الإسلام بوجود إنسان كلّى المعرفة كلّى الرؤية معصوم من الخطأ وخالد. إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يدّع لنفسه هذه المكانة. بل إنه قد عوتب من ربه فى أكثر من موضع بالقرآن كما فى هذه الآية: ﴿**عبس وتولّى. أن جاءه الأعمى. وما يُدريك لعله يزّكى. أو يذّكر فتنفعه الذكرى. أمّا من استغنى. فأنت له تصدّى. وما عليك ألا يزّكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلّهى. كلا إنها تذكرة. فمن شاء ذكره**﴾[٧١].

والقرآن من هذه الناحية كتاب واقعى لا يكرّس البطولات «الأسطورية». أما ظاهرة عبادة الأشخاص التى سادت شرقا وغربا سواء فى الماضى أو الحاضر فهى ظاهرة غريبة عن الإسلام بصفة مطلقة إذ أنها فى الحقيقة نوع من الوثنية التى حرمها القرآن: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾[٧٢].

إن المعيار الصحيح لقيمة الإنسان يتمثل فى حياته الشخصية وفى مقدار ما يقدّمه للمجتمع بالنسبة لما يأخذ منه. أما التعظيم والثناء فينبغى أن نتوجّه بهما لله وحده. وهو سبحانه وحده القادر على أن يحكم على قيمة الإنسان وفضله.

---

(٧٠) يقصد المؤلف أنه فى اطار النظام الإسلامى تكون الهيمنة المطلقة لمبادىء الاسلام وأما بالنسبة للافراد الذين سيتصدرون القيادة السياسية فى هذا النظام فسوف يتم انتخابهم بطريق الاقتراع الحر من جانب جميع أبناء الأمة. «المترجم».

(٧١) سورة عبس: من آية ١ إلى آية ١٢ وهناك آيات أخرى فى هذا المجال: ﴿عفا الله عنك لم أذنْت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعْلم الكاذبين﴾ سورة التوبة: آية ٤٣ ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ سورة الأنفال: آية ٦٧.

(٧٢) انظر سورة التوبة: آية ٣١.

(٩)

التربيـــة

لما كان الدين هو أساس المجتمع الإسلامى فإن التربية لا تعتبر فقط إحدى وظائفه وإنما هى لبُّ وجوده وبقائه. إنها فوق كل شىء تربية دينية وأخلاقية تبدأ فى الأسرة وتستمر خلال جميع المراحل الدراسية.

وأمام النظام الإسلامى مهمة خاصة عليه أن ينهض بها ألا وهى القضاء على جميع أشكال التربية الخاطئة. إن الإسلام يحرّم أمورا وعلى النظام الإسلامى أن يتخذ جميع الإجراءات اللازمة للقضاء عليها وهى كالأتى:

- جميع أنواع المسْكرات والمخدرات.
- الدعارة العلنية والسرية.
- الإباحية فى الكلمة المنطوقة وفى الصور والأفلام والتليفزيون.
- أندية القمار والأندية الليلية وصالات الرقص وغيرها من أنواع اللهو التى تتعارض مع التعاليم الأخلاقية للإسلام.

(١٠)

التعليـم

تعليم الجيل الجديد يعتبر جزءا هاما من هذه التربية المتكاملة. فالتعليم - مع الوحدة - هو العامل الحاسم الثانى للإسراع فى تحرير العالم المسلم من أوضاعه المتردّية فى الوقت الراهن. إن البلاد المسلمة تفتقر إلى رأس المال الكافى. ولذلك ينبغى عليها أن تستثمر ما لديها فى أعظم مجالات الاستثمار عائداً.. ألا وهو التعليم.

فلا يمكن أن يقوم استقلال صحيح بدون المقدرة على تطبيق التقدمات العلمية واستخدامها والاستمرار فى تطويرها. عندما ظهر الإسلام أخذ المسلمون فى عهودهم الأولى على عاتقهم دراسة وتجميع التراث العلمى الذى خلّفته الحضارة السابقة.. فعل المسلمون ذلك دون تعصب ولا خوف، فما بالهم اليوم يعجزون عن اتخاذ نفس الموقف تجاه الحضارة الأوروبية - الأمريكية التى يشتركون معها فى حدود طويلة!

ليس السؤال المطروح هو ما إذا كنا نريد أو لا نريد قبول العلم والتكنولوجيا.. فلا مفر من قبولهما إذا كنا نحرص على البقاء وإنما السؤال هو ما إذا كنا سنفعل ذلك

بطريقة إبداعية أم بطريقة ميكانيكية . . بشرف وعزة أم نتيجة شعور بالدونية؟ - السؤال هو - فى هذا التطور الحتمى - هل تضيع هويّتنا أم أننا سنحافظ على شخصيتنا وعلى ثقافتنا وقيمنا؟ .

فى ضوء هذا الحقائق يمكننا القول واثقين أن التعليم فى العالم المسلم الراهن هو أكثر المؤسسات حاجة إلى تغيير جذرى حاسم من ناحيتيه الكيفية والكمية . أما من الناحية الكيفية فلكى يتحرر التعليم من التبعية الروحية وفى بعض الحالات من التبعية المادية للأجانب ، ولكى يبدأ فى خدمة التربية لجميع المسلمين شعوبا وأعضاء فى المجتمع الاسلامى . ومن الناحية الكمية لابد من القضاء على العجز المزمن «فى المدارس» فى أقصر وقت ممكن وذلك لخلق الظروف المواتية لإتاحة التعليم لجميع الناشئة ولجميع الفئات السكانية . ويمكن للمساجد أن تقوم مؤقتا بدلا من المدارس فى أداء هذه الخدمة . فإذا لم نفشل فى برامجنا التعليمية فلن نفشل فى أى مجال آخر .

(١١)

حرية الضمير

إن تربية الشعب وعلى الأخص خلال وسائل الإعلام الجماهيرية كالصحافة والراديو والتلفاز والسينما . . ينبغى أن تكون فى أيدى أناس يتمتعون بأخلاق إسلامية لا غبار عليها ، ويتميّزون بقدرات فكرية رفيعة . . إن هذه الوسائل لا ينبغى أن نسمح لها أن تقع - كما نلاحظ غالبا - فى أيدى أناس مارقين منحلين ينقلون سخف حياتهم وفراغها إلى الآخرين . . وإلا فما الذى يمكن أن نتوقعه إذا كان كلٌ من المسجد والتلفاز يحاول أن يبلّغ الناس رسالة متناقضة مع رسالة الآخر؟ .

ولا يعنى هذا على الإطلاق أن النظام الإسلامى يفرض دكتاتورية روحية حيث تقوم السلطة ببث حقائق جاهزة لتنشئة شباب تافه فاقد للشخصية ، وإنما يعنى فحسب أن ثمّة مبادىء أولية وقواعد أساسية للسلوك لابد من احترامها فى كل الظروف . لقد أعلن الإسلام حرية الدين كمبدأ ، ومن ثم فإنه يرفض أى نوع من الإكراه فى مسألة الإيمان والضمير سواء أكان هذا الإكراه ماديا أم نفسيا : ﴿لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرّشد من الغىّ..﴾ (٧٣) وأكثر من هذا فإن مبدأ الإجماع يجعل الإكراه أمرا لا لزوم له فقد قال محمد صلى الله عليه وسلم : «لا تجتمع أمتى على خطأ» . . ومهما كان تشدّد الإسلام

(٧٣) سورة البقرة : آية رقم ٢٥٦ .

من الناحية الأخلاقية فإن انفتاحه على الطبيعة وعلى مسرّات الحياة يجعله دين حرية الفكر كما يشهد بذلك تاريخ الإسلام فى كل العصور. ولأن الإسلام دين يؤمن بالله ولا يقرّ المذهبية المغلقة ولا يقر سلطة الإكليروس «رجال الدين» فإن الإسلام لا يمكن أن يتحوّل إلى نظام دكتاتورى مستبد، ومن ثم فلا مجال فيه لمحاكم التفتيش والاضطهاد أو الإرهاب الروحى.

(١٢)

الإسلام والاستقلال

لا يقوم نظام إسلامى بدون استقلال وحرية، وبالعكس لا توجد حرية أو استقلال بدون إسلام. وهذا الشق الثانى «من القضية» ينطوى على معنى مزدوج:

المعنى الأول: أن الاستقلال لا يكون استقلالا حقيقيا ودائما إلا إذا كان نتيجة لتحقيق الاستقلال الروحى والفكرى، وكان علامة على أن شعباً قد وجد هويته واكتشف قوته الجوانية، فبدون ذلك يصبح الاستقلال الذى حصل عليه فارغا من المعنى غير قابل للاستمرار. إن الشعب المسلم بتأكيده على ممارسة الفكر الإسلامى فى حياته العملية يرى فى هذا تطابقا مع ذاته كما يرى تحرره الروحى شرطا لتحرره الاجتماعى والسياسى.

المعنى الثانى: أن الدعم الحقيقى الذى يمنحه الشعب المسلم لأى نظام فى السلطة يتناسب تناسبا طرديا مع مقدار ما يتمتع به هذا النظام من طابع إسلامى، وكلما ابتعد النظام عن الإسلام كلما قلّ دعم الشعب له. وهكذا تبقى الأنظمة المعادية للإسلام محرومة تماما من أى دعم شعبى، ومن ثم تجد نفسها ـ طوعا أو كرها ـ مجبورة على البحث عن هذا الدعم لدى القوى الأجنبية. ولذلك فإن التبعية التى تغرق فيها هذه الأنظمة هى نتيجة مباشرة لتوجهاتها اللا إسلامية.

هذه الحقائق تحدد النظام الإسلامى على أنه نظام ديمقراطى. لا مجرد ديمقراطية شكلية بل ديمقراطية حقيقية تتمتع بإجماع الرأى. هذا النوع من الديمقراطية لا يوجد إلا حيث تصب الحكومة فكرها وعملها فى اتجاه تطلعات الشعب، وحيث تتصرف كأنها تعبّر تعبيرا مباشرا عن إرادته. إن إقامة نظام إسلامى «فى بلد مسلم» هو فى الحقيقة عمل ديمقراطى على أرفع درجة من الديمقراطية لأنه يعنى تحقيق أعمق التطلعات وأعزها لدى الشعب والأفراد على السواء. فثمة شىء واحد مؤكد ـ بصرف

النظر عما تريده قلة من الأثرياء والمفكرين - وهو أن عامة الشعب المسلم تريد الإسلام، وتريد الحياة فى مجتمع إسلامى. هنا لا تأتى الديمقراطية من مجرد المبادئ والشعارات وإنما تأتى من صميم الواقع. وفى هذا لا يلجأ النظام الإسلامى إلى العنف لأنه - ببساطة - لا حاجة له إلى العنف. أما النظم «اللا إسلامية» فإنها تستشعر العداء والمقاومة من جانب الشعب فتلجأ إلى العنف لتمرير سياستها بالقوة.. ولذلك فإن تحوّل هذه النظم إلى الدكتاتورية - آجلا أو عاجلا - هو القاعدة. إنه شر لا مفرٍّ منه.

(١٣)

العمل والجهاد

على المجتمع الإسلامى أن يأخذ على عاتقه تعبئة الموارد البشرية والمصادر الطبيعية وأن يتخذ من الإجراءات ما يشجع على العمل والنشاط. إن بقاء المجتمع الإسلامى وقوته وضعفه يخضع لسُنن العمل والكفاح التى تخضع لها المجتمعات الأخرى ولا يتمتع فى هذا الصدد - بأى امتيازات إلهية: **﴿يأيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبّهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لوْمة لائم ذلك فضلَ الله يُؤتيه من يشاء واللهُ واسع عليم﴾**(٧٤).

ولابد من القضاء على آفتيْن نفسيتين فى الرأى العام عندنا ألا وهما: الاعتقاد فى المعجزات وانتظار المساعدة من الآخرين. فلا توجد معجزات سوى تلك التى يحققها الناس بواسطة العلم والعمل ولا وجود «للمهدى المنتظر» الذى سيخلصنا من أعدائنا ويقضى على الشقاء وينشر النور والرخاء بعصا سحرية. وما ركوننا إلى ذلك إلا تعبير عن كسلنا، أو على الأرجح هو تعبير عن أمل زائف نشأ من شعور باليأس عندما نكون فى وضع تفوق فيه المشكلات والصعوبات التى تواجهنا كل ما لدينا من وسائل وإمكانات لمعالجتها.

فانتظار المساعدات الأجنبية صورة أخرى من صور المعتقدات الخرافية، فقد اعتدنا التطلع خارج نطاق الدول المسلمة إلى أصدقاء غير أنانيّين أو أعداء ألدّاء، ثم نطلق على هذا «سياستنا الخارجية».

وعندما نتحقق أنه لا يوجد أصدقاء حقيقيون ولا أعداء حقيقيون، وعندما نبدأ فى توجيه لوم أكثر لانفسنا على شقائنا ونقلل من التعلل «بمخططات العدو الخبيثة» عندما

---

(٧٤) سورة المائدة: آية ٥٤.

نفعل ذلك سيكون هذا إيذانا بأننا قد شرعنا فى النضج ، وأن عهدا جديدا تقلّ فيه خيبة الأمل والحظ العاثر قد أقبل . وعلى أية حال حتى لو وجد أناس على استعداد لتقديم مساعداتهم إلينا دون أن يطلبوا مقابل ذلك امتيازات سياسية أو مادية مبالغ فيها . . فليس هذا من شأنه أن يغير شيئا من وضعنا . إن الثروة لا يمكن إستيرادها من الخارج بل لابد من صنعها فى داخل البلاد من خلال العمل والجهد . فكل ما نريد تحقيقه لابد أن نعمله بأنفسنا ، فلا يوجد من يستطيع أو يرغب أن يقوم به نيابة عنا .

وقاعدة كهذه لبرنامج من العمل والنشاط يمكن أن تكون أساسا لأعلى مستوى من التشجيع على الاستثمار ، فالثروات الطبيعية وإمكاناتها فى العالم الإسلامى هائلة . إن أندونيسيا وحدها - وهى جزء من العالم الإسلامى - تعتبر ثالث أغنى منطقة فى العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . أما العالم الإسلامى فى مجموعه فيحتل المركز الأول فى الثروة الطبيعية .

إننا بإعلان عهد الصحوة الإسلامية لا نبشر بعهد من السلام والدّعة بل نبشّر بعهد من القلق والمعاناة . فهناك أشياء كثيرة تستدعى القضاء عليها . ولن تكون هذه أيام رفاهية بل أيام احترام للذات . . إن الأمة النائمة لا تستيقظ إلا تحت وقع الضربات . وكل من أراد الخير بمجتمعاتنا لن يحاول أن يجنّبها الكدّ والمخاطر والصعاب وإنما عليه أن يبذل قصارى جهده لحملها على أن تبدأ - فى أسرع وقت ممكن - فى استخدام قواها الذاتية ، واختبار جميع إمكاناتها واقتحام المخاطر . . وفى كلمة واحدة : ألاّ تنام وإنما تحيا وتنشط . فالمجتمعات النشطة المتيقظة وحدها هى التى تستطيع أن تكتشف نفسها وأن تهتدى إلى طريقها .

(١٤)

المرأة والأسرة

وضع المرأة فى المجتمع المسلم لابد من تغييره لكى يتلاءم مع مهمتها كأم ومعلمة طبيعية للأجيال الناشئة . فالأم الجاهلية المهملة التعيسة لا تستطيع تنشئة أبناء وبنات قادرين على بعث النهضة فى الشعوب المسلمة وقيادتها ، فلابد «للمسلمين» من المبادرة بالاعتراف بالأمومة كوظيفة اجتماعية والكف عن معاملة المرأة بالأسلوب التقليدى «كأننا فى عصر الحريم» وليس لأحد حق الاحتجاج بالإسلام للإبقاء على النساء محرومات من حقوقهن المشروعة ، فلابد من وضع حد لأى استغلال من هذا النوع .

ووجهة نظرنا هذه لا تمثل أفكار الحركة النسائية فى الغرب التى تتكشف عن اتجاه إلى فرض قيم وأهواء وسيطرة عنصر فاسد من عناصر النساء، كما أنها لا تمثل فكرة المساواة «المطلقة» بين الجنسين بالمعنى الأوروبى، إنما هى تأكيد على إبراز القيمة المتساوية للرجل والمرأة. ومبدأ القيمة المتساوية هو نتيجة مباشرة لقاعدة المساواة بين الرجل والمرأة فى الالتزامات الدينية والأخلاقية التى أشار إليها القرآن بوضوح فى آيات كثيرة منها: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيماً﴾ (٧٥).

لقد حوّلت الحضارة «الغربية» المرأة إلى شىء للاستمتاع به أو عبادته، وفى كلتا الحالتين سلبتها شخصيتها التى بها وحدها يمكن أن تكون موضع تقدير واحترام. وبإهمال هذه الحضارة للأمومة جرّدت المرأة من وظيفتها الأساسية التى لا يمكن تعويضها بأى شىء آخر.

وفى هذه الأيام حيث تشهد الأسرة أزمة خطيرة(٧٦) ويجرى التشكيك فى قيمها، يعود الإسلام ليؤكد انحيازه التام لهذا الشكل من أشكال الحياة الإنسانية. فالإسلام إذ يحرص على تأمين عش الزوجية وتجنيبه عوامل التخريب الداخلية والخارجية «كالخمر والدعارة وانعدام المسئولية . . » فإنه يقوم عمليا بحماية المصالح المطلقة الحقيقية للمرأة السوية. وبدلا من فكرة المساواة المطلقة يضمن الإسلام للمرأة المحبة والحياة الزوجية والأطفال وكل ما تعنيه هذه الأمور الثلاثة للمرأة.

إن قوانين الأسرة والزواج كما صيغت فى القرون الأولى للإسلام تحتاج إلى مراجعة بما يتلاءم مع متطلبات العصر وتطور الوعى الإنسانى والاجتماعى. ويجب أن يكون الاتجاه نحو كبح تعدد الزوجات والعمل على تقييد الطلاق واتخاذ اجراءات أكثر فعالية لحماية المرأة والأطفال فى كلتا الحالتين.

---

(٧٥) سورة الأحزاب: آية ٣٥ وأنظر ايضا القرآن فى الآيات التالية: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الحجرات: آية ١٣ ﴿ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ النحل: آية ٩٧ ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ النساء: آية ١٢٤.

(٧٦) لمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع انظر كتاب المؤلف «الاسلام بين الشرق والغرب» من ص ٢٥٦- ٢٦٥.

(١٥)

الغاية لا تبرّر الوسيلة

يجوز فى الجهاد من أجل إقامة نظام إسلامى استخدام جميع الوسائل فيما عدا وسيلة واحدة ألا وهى الجريمة.

فلا أحد يملك الحق لتشويه وجه الإسلام ولا الإساءة إلى هذا الجهاد باستعمال العنف الجامح والإسراف فى استخدام القوة. وعلى المجتمع الإسلامى أن يؤكد من جديد أن العدالة أحد أسسه الراسخة. إن القرآن لم يأمرنا بحب أعدائنا، ولكنه يأمرنا بطريقة صريحة قاطعة بأن نعدل معهم بل أن نعفو ونصفح عنهم: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾** (٧٧) **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾** (٧٨) فاستخدام القوة يجب أن يخضع لهذه المبادئ.

لقد أدى مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»(٧٩) إلى جرائم لا حصر لها. ولكن الغاية النبيلة لا يمكن الوصول إليها بوسائل دنيئة، كما أن استخدام الوسائل الدنيئة من شأنه أن يحط من قيمة أى غاية ويعرضها للخطر. وكلما قويت أخلاقنا كلما قلت حاجتنا إلى استخدام العنف، فالعنف «فى مجال العقيدة» سلاح يلجأ إليه الضعفاء، وما لا يمكن تحقيقه بالقوة يمكن تحقيقه بالكرم والثبات والشجاعة: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾**(٨٠) **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة الموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾**(٨١)

---

(٧٧) انظر سورة النساء: آية رقم ١٣٥. (٧٨) انظر سورة النحل: آية رقم ١٢٦.

(٧٩) بعد عشرين سنة من كتابة هذا الكلام وقعت لشعب البوسنة المسلم أحداث رهيبة ولا يزال يتعرض لحرب إبادة اقترفت فيها القوات الصربية والكرواتية جرائم وحشية ضد المسلمين الآمنين باسم التطهير العرقى. وبرزت المكيافيلية على اشدها من جانب السياسيين والعسكريين تجاه المسلمين. ومع ذلك فإن المقاتلين المسلمين بقيادة رئيسهم «على عزت مؤلف هذا الكتاب» قد ظلوا يتعففون عن تلطيخ أيديهم بدماء السكان الأبرياء ولا يلجئون لاغتصاب النساء وقتل الاطفال والمرضى كما يفعل أعداؤهم كل يوم، وهكذا أمام المكيافيلية تمتحن المبادئ الاسلامية فتثبت فى مجال التطبيق «المترجم».

(٨٠) انظر سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٨١) انظر سورة النحل: آية رقم ١٢٥.

(١٦)

الأقليات

النظام الإسلامى لا يمكن تطبيقه إلا فى الدول التى يكون المسلمون فيها هم الأكثرية العظمى من السكان، وبدون هذه الأكثرية فإن النظام الإسلامى «إذا وُجدَ» يتدنى إلى مجرد قوة مسيطرة، حيث يفتقر إلى المجتمع الإسلامى «وهو شرطه الأساسى» وقد يتحول إلى نظام جائر مستبدّ.

وللأقليات غير المسلمة فى الدولة الإسلامية حق التمتع بالحرية الدينية والحماية الكاملة بشرط ولائها للدولة.

أمَّا الأقليات المسلمة فى المجتمعات غير الإسلامية مادامت حريتها فى ممارسة العقيدة مضمونة ومادامت قادرة على ممارسة حياة طبيعية.. فإن عليها الوفاء بواجباتها إزاء هذه المجتمعات إلا ما يكون منها ضاراً بالإسلام والمسلمين.

والحق أن وضع الأقليات المسلمة فى البلاد غير الإسلامية يتوقف دائما على قوة المجتمع الإسلامى وهيبته «فى العالم». [٨٢]

(١٧)

العلاقات مع المجتمعات الأخرى

تقوم العلاقات بين المجتمع الإسلامى والمجتمعات الأخرى فى العالم على أساس من المبادىء التالية:

١ - الحرية الدينية: **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾**[٨٣]

---

(٨٢) لا شك أن هذه الهيبة مفقودة بل ان المجتمع الإسلامى أو الوحدة الإسلامية لا وجود لهما على الحقيقة، وكل ما هو موجود بعض اطر شكلية هشّة يجتمع خلالها قادة الدول المسلمة كلما نزلت بالمسلمين كارثة هنا أو هناك، ذراً للرماد فى العيون أو امتصاصا لمشاعر الغضب التى تجتاح الشعوب المسلمة. هذا الاطر الهشة هى على الأرجح كل ما يسمح به السادة فى الغرب من مساحة لحركة الدول المسلمة، كما أن انعدام فاعلية هذه الأطر يتلاءم بصفة خاصة مع السلطات التى لا تنتمى إلى شعوبها انتماءاحقيقيا، ولا تستجيب بصدق لمشاعر هذه الشعوب، فلا عجب أن تستمر مأساة الأقليات المسلمة فى إنحاء العالم مستعرة على امتداد الكرة الأرضية «المترجم».

(٨٣) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

٢- القوة والتصميم على الدفاع الحاسم الفعال: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترّهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم..﴾(٨٤) ﴿يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾(٨٥) ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾(٨٦)

﴿والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون .وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾(٨٧)

٣- حظر الحروب العدوانية وجرائم الحرب: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾(٨٨) ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ (٨٩)

٤- التعاون المشترك والتعارف بين الشعوب: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾(٩٠)

٥- احترام العهود والاتفاقات المعقودة: ﴿... إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾(٩١)

٦- المعاملة بالمثل: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾. (٩٢)

---

(٨٤) سورة الأنفال: آية ٦٠.
(٨٥) سورة الأنفال: آية ٦٥.
(٨٦) سورة البقرة: من آية ١٩٠ إلى ١٩٢.
(٨٧) سورة الشورى: من آية ٣٩ إلى ٤٢.
(٨٨) سورة الأنفال: آية ٦٢.
(٨٩) سورة الشورى: آية ٤٢.
(٩٠) سورة الحجرات: آية رقم ١٣.
(٩١) سورة التوبة: آية ٤.
(٩٢) سورة التوبة: آية ٨.

الفصل الثالث
المشكلات الراهنة للنظام الإسلامى

النهضة الإسلامية: أهى ثورة دينية أم سياسية؟:

فى النظام الإسلامى تتوحد عناصر الدين والتنظيم السياسى والاجتماعى جميعا، فكيف نسعى لتحقيقه؟ . . بنهضة دينية أم بثورة سياسية؟

إن الاجابة عن هذا السؤال هى: إنه لا يمكن البدء فى نهضة إسلامية بدون ثورة دينية كما أنه لا يمكن لهذه النهضة أن تواصل سيرها بنجاح وتكتمل إلا بثورة سياسية.

هذه الاجابة التى تحدد النهضة الإسلامية باعتبارها ثورة مزدوجة: أخلاقية واجتماعية، وتعطى أولوية واضحة للصحوة الدينية. . هذه الإجابة تنبثق من طبيعة الإسلام ومبادئه وليس من الواقع الكئيب الذى يطبع العالم المسلم فى الوقت الحالى.

هذا الواقع يفصح عن خطورة الحالة المعنوية للعالم المسلم كما يكشف عن الانحراف وسيطرة الفساد والخرافة والكسل والنفاق وسيادة التقاليد والعادات غير الإسلامية وترسّخ المادية، والغياب المذهل للحماسة والأمل. فهل يمكن البدء بأى نوع من الإصلاح الاجتماعى أو السياسى مباشرة فى مثل هذه الظروف؟.

وكل أمة - قبل دعوتها لأداء دورها فى التاريخ- عليها أن تحيا فترة من التطهير «الجوانى»[٩٣] والتسليم العملى بمبادئ أخلاقية أساسية معينة. إن كل قوة فى العالم تبدأ بثبات أخلاقى، وكل هزيمة تبدأ بانهيار أخلاقى. فكل ما يراد تحقيقه لابد أن نبدأ بتحقيقه أولا فى أنفس الناس.

فماذا نعنى بالصحوة الدينية كمتطلب أساسى للنظام الإسلامى؟.

إن الصحوة الدينية هى وعى واضح بالغاية الحقيقية للحياة: لمَ نحيا؟ ولأجل أى

(٩٣) انظر هامش رقم «٧» بالفصل الأول من هذا الكتاب «المترجم».

هدف نحيا؟ وهل هذا الهدف هدف شخصى أم هدف مشترك؟ هل يتعلق الهدف بعظمة العنصر «الذى أنتمى إليه» أم مجد الأمة، أم تأكيد شخصيتى الفردية، أم هو هيمنة شريعة الله على الأرض؟ . . بالنسبة لحالتنا: الصحوة الدينية تعنى من الناحية العملية «أسلمة» الناس الذين يدّعون أنهم مسلمون، أو أولئك الناس الذين يدعوهم الآخرون بهذا الاسم. فنقطة الانطلاق فى هذه «الأسلمة» هى الإيمان الراسخ بالله من جانب المسلمين والالتزام الدقيق الأصيل بقيم الإسلام الدينية والأخلاقية.

أما العنصر الثانى للصحوة الدينية فيتمثل فى الاستعداد للقيام بالواجبات التى يفرضها الوعى بالهدف (٩٤) فالصحوة الدينية ـ لذلك ـ هى نوع من الالتزام الأخلاقى والحماسة، حالة من القوة الروحية على المادة، حالة من المثالية الحية العملية يصبح فيها الأشخاص العاديون قادرين على أعمال بطولية تتسم بالشجاعة والتضحية. ومن ثم فالصحوة الدينية خاصية جديدة للإيمان والإرادة، تتلاشى فيها قيمة المعايير اليومية المألوفة للممكن، ويرتفع فيها الفرد والجماعة معا إلى درجة أعلى من درجات التضحية فى سبيل تحقيق مثلهم الأعلى.

وبدون هذه الحالة الجديدة للروح والشعور يستحيل تحقيق أى تغيير حقيقى فى عالم المسلمين الحالى.

وعند النظر فى هذه الامور تستبد بنا الحيرة ـ ولو للحظة قصيرة ـ فنتساءل: هل أقصر طريق للنظام الاسلامى هو الاستيلاء على السلطة التى ستقوم بدورها ببناء المؤسسات المناسبة وتقوم بتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية، كمقدمة ضرورية لبناء مجتمع اسلامى؟.

لكن هذه مجرد غواية، فالتاريخ لا يذكر لنا أى ثورة حقيقية جاءت عن طريق السلطة وانما عن طريق التربية وكانت معنية فى جوهرها بالدعوة الأخلاقية.

إضافة إلى ذلك فإن الصيغة التى تقصر إقامة النظام الإسلامى على نوع من السلطة لا تجيب عن السؤال: من أين تأتى هذه السلطة ومن سيقيمها وينفذها؟ ومن أى نوع من الناس ستتألف هذه السلطة ومؤسساتها؟ وفى النهاية من الذى سيكبح سلوك هذه

---

(٩٤) التأكيد هنا واضح فى الصحوة الدينية على القيم وتربية النفس والالتزام الخلقى وقوة الروح التى تتسامى على المادة والإغواء والخوف وليس مجرد العناية بالأشكال والمظاهر الخارجية والاستغراق أو الانشغال بالمسائل الشكلية الصغيرة دون القضايا الكبرى والمشاكل الجوهرية، كما نلاحظه اليوم سائدا بين كثرة من المسلمين «المترجم».

السلطة ويمنعها من أن تتحول إلى «غول» تخدم نفسها بدلا من أن تخدم الشعب الذى رحّب بها؟ (٩٥).

من الممكن استبدال مجموعة من الناس فى السلطة بمجموعة أخرى وهذا ما يحدث كل يوم. . يمكن استبدال مجموعة من الطغاة بمجموعة أخرى من الطغاة. . «إن مُلاك السلطة، فى هذا العالم قابلون للتغيير» ومن الممكن تغيير الاسماء والأعلام والسلام الوطنى والشعارات. . ولكننا بهذا كله لا نستطيع أن نتقدم خطوة واحدة نحو تحقيق النظام الإسلامى من حيث هو تجربة جديدة فى العالم. . وعلاقة جديدة مختلفة بين الإنسان ونفسه وبينه وبين الآخرين والعالم.

والتطلع الدائم إلى سلطة ما للمساعدة تكمن جذوره فى الميل الطبيعى للإنسان إلى الهروب من المراحل الأولى الشاقة من الجهاد. . وأعنى بذلك جهاد النفس، فإن تربية الناس مشقة، ولكن أشق منها تربية الذات.

والصحوة الدينية بحكم تعريفها تعنى البدء بالذات. . بحياة الإنسان نفسه. . أما فكرة العنف والسلطة «كوسيلة للتغيير» فهى موجهة للآخرين، وهذا ما يجعل هذه الفكرة ذات إغواء.

لذلك لابد لأى حركة تتطلع إلى النظام الإسلامى كهدف أساسى لها أن تكون حركة أخلاقية. أن تستهدف إيقاظ الناس بالمعنى الأخلاقى، وأن تكون لها وظيفة أخلاقية تنهض بالناس وتصلح أحوالهم. وهذا هو الفرق بين الحركة الإسلامية وبين الحزب السياسى. فالحزب السياسى قد تتمثل فيه وحدة بين الإفكار والمصالح ولكنه لا يتضمن معايير أخلاقية ولا يشغل الناس بنشاط أخلاقى.

لقد أعطت المصادر الإسلامية أولوية مطلقة للصحوة الدينية:

أولا: يقرر القرآن أن الصحوة الجوانية «تغيير النفس» شرط سابق على أى تغيير أو إصلاح أوضاع أى جماعة: **﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾** (٩٦).

---

(٩٥) لعل هذه خلاصة تجارب البلاد المسلمة خلال العقود الإربعة الأخيرة: فالانقلابات التى سمت نفسها ثورات تحولت كلها إلى قوى مستبدة كان أكبر ما نجحت فيه أنها قضت على القوى الشعبية التى جاءت بها إلى السلطة أو ساندتها لحظات ضعفها الأولى، ثم تحولت إلى الأمة بأسرها لتدجينها وانتزاع روح الجهاد والمبادرة منها وقد نجحت فى ذلك أكثر مما فعل الاستعمار الأجنبى بهذه الشعوب. «المترجم».

(٩٦) سورة الرعد: آية رقم ١١.

ثانيا: تأكدت هذه القاعدة عمليا فى صدر الإسلام وفى جهاد الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) فى سبيل إقامة أول نظام إسلامى فى التاريخ، ويدل على هذا أن القرآن - طوال السنوات الثلاث عشرة الأولى من الدعوة الإسلامية - اقتصر فى نقاشه على قضايا الإيمان وتأكيد المسئولية، ولم يتطرق فى تلك الفترة لأية مشكلة اجتماعية أو سياسية ولم يقرر أى نوع من القوانين الاجتماعية المبنية على الإسلام.

إننا نتطلع إلى الصحوة الدينية فى تحقيق ثلاثة أمور أخرى هامة:

١- الصحوة الدينية وحدها هى التى يمكن أن توفر العزم - دون تردد أو تساهل - على تطبيق أحكام القرآن ولاسيما تلك الاحكام التى تتعلق بالأمراض الاجتماعية المتأصلة، أو التى من شأنها إحراج أصحاب السلطان ومحتكرى الثروات العريضة. وتعنى الصحوة الدينية أن يتم تطبيق هذه الأحكام بدون عنف ولا كراهية. لأن كل المجتمع الذى استيقظ فيه وعيه الدينى «أو غالبيته» سوف يفقه هذه الأحكام ويرحب بها طاعة لأمر الله وتحقيقا للعدل.

٢- لا يمكن تصور نهضة إسلامية بدون استعداد الناس لتضحيات هائلة بالأموال والأنفس، ولا بدون درجة عالية من الثقة المتبادلة والتعاون المخلص فيما بينهم، وإلا فما الذى يحول دون استغلال هذه الجهود والتضحيات التى يفرضها على نفسه فريق من المجتمع لكى يستخدمها فريق آخر لدعم سيطرته وإشباع مطامعه؟ وما الذى يمنع من تكرار مأساة الهزائم الأخلاقية [٩٧] التى يتكرر ظهورها فى التاريخ الحديث «للمسلمين». إن كل نظام بما فى ذلك النظام الإسلامى - يكون دائما أكثر تمثيلا للناس الذين أقاموه من تمثيله للمبادئ التى ينادون بها.

٣- نظرا للتخلف المذهل فى العالم الاسلامى.. عليه أن يسير سيرا حثيثا فى مجالى التربية والتصنيع «جنبا إلى جنب» ذلك لأن التنمية المادية المتسرعة تكون عادة مصحوبة بأعراض مرضية خطيرة، تتمثل فى الاستبداد والفساد وتحطيم الأسرة وانتهاب الثروات بطرق سريعة غيرمشروعة، وبروز الانتهازيين ومعدومى الضمير فى

---

(٩٧) يرى «على عزت» أن الهزائم العسكرية والكوارث الاجتماعية والسياسية التى تحل بالمجتمعات المسلمة هزائم أخلاقية بالدرجة الأولى. فالهزائم تبدأ فى النفوس أولا ثم تتحقق فى الواقع. ولعل الأعمال الأدبية تعكس هذه الحقيقة بصدق أكثر من تقارير بعض العسكريين والمحللين السياسيين، فبعض أعمال نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس مثلا تعكس الهزائم الأخلاقية للمجتمع التى سبقت هزيمة العرب سنة ١٩٦٧ إمام العدو الإسرائيلى ولإحسان عبدالقدوس كتاب بعنوان «الهزيمة اسمها فاطمة» يكشف عن الفساد السياسى والانحلال الخلقى الذى سبق الهزيمة العسكرية والعنوان يحمل دلالته! (المترجم)

المقدمة، والتوسع فى المدن «على حساب الريف» وانتشار الكحول والمخدرات وتفشى الدعارة. ولا يوجد سد يحول دون الفيضان الكاسح لهذا الخبث المضاد للثقافة والأخلاق إلا ذلك السد الذى يبنى على أساس من الايمان القوى الخالص بالله، والالتزام بتعاليم الدين من قبل جميع فئات الشعب، فالدين وحده هو الذى يضمن لنا ألا تقوض الحضارة أركان الثقافة (٩٨). أما التقدم المادى والتقنى المجرد كما رأينا بوضوح فى كثير من الحالات فإنه قد يتحول إلى بربرية.

السلطـــة الإسلاميـــة

إننا إذا كنا نؤكد على أولوية الصحوة الدينية والأخلاقية فهذا لا يعنى ـ ولا يصح تأويله ليعنى ـ أن النظام الإسلامى يمكن أن يقوم بدون سلطة إسلامية. إنه يعنى فحسب أن طريقنا لا يبدأ بالاستيلاء على السلطة وإنما بكسب الناس، وأن الصحوة الإسلامية إنما هى ثورة فى التربية تؤدى إلى ثورة فى السياسة. فيجب علينا أن نكون أولا دعاة ثم بعد ذلك نكون جنودا مجاهدين، وسلاحنا هو القدوة الشخصية والكتاب والكلمة فمتى تلحق القوة بهذا كله؟

اختيار هذه اللحظة هو دائما اختيار واقعى يعتمد على سلسلة من العوامل. وتوجد على كل حال قاعدة عامة: أن الحركة الاسلامية يمكنها بل يجب عليها أن تبدأ فى السعى إلى السلطة عندما تجد فى نفسها من القوة الأخلاقية والعددية ما يمكّنها ـ ليس فقط ـ من تغيير الحكومة غير الإسلامية ـ بل أيضا ـ من بناء حكومة إسلامية. وهذا التمييز بالغ الأهمية لأن تغيير النظام وبناء نظام آخر لا يتطلبان نفس الدرجة من التهيؤ النفسى والمادى.

التسرع فى هذه الأمور خطر، شأنه فى ذلك شأن التراخى، وتسلّم السلطة نتيجة توافر مجموعة من الظروف المواتية بدون إعداد أخلاقى ونفسى كاف وبدون توافر الحد الأدنى الضرورى من الأفراد المدربين تدريبا عاليا متينا يعنى إحداث انقلاب آخر وليس ثورة إسلامية، «والانقلاب إنما هو استمرارية للسياسة غير الإسلامية مما تقوم به المجموعات الأخرى أو باسم مبادئ أخرى غير المبادئ الإسلامية».

---

(٩٨) للتمييز بين الحضارة والثقافة عقد على عزت فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» فصلا كاملا لمن أراد أن يتوسع فى فهم هذا الموضوع وعلى عزت لا يلتزم فى فلسفته بالتعاريف الكثيرة المختلفة التى سبقته وإنما يقدم مفهوما جديدا يفصل فيه فصلا تاما بين ما ينتمى إلى عالم الثقافة وما ينتمى إلى عالم الحضارة. (المترجم).

وبالمثل فإن التراخى فى تسلّم السلطة معناه حرمان الحركة الإسلامية من وسائل فعالة لتحقيق أهدافها، وإتاحة الفرصة فى نفس الوقت للسلطات غير الإسلامية لتسديد الضربات للحركة وتمزيق شملها. والتاريخ الحديث يقدم لنا ـ فى هذا المجال ـ نماذج مأساوية ذات دلالة لا تُنكر.

باكستان ـ جمهورية إسلامية:

عند الحديث عن الحكم الإسلامى لا نستطيع تجنب الإشارة إلى النموذج الباكستانى وهو النموذج الوحيد اليوم الذى أعلن بأنه جمهورية إسلامية[٩٩].

إننا نعتز بباكستان بصرف النظر عن الإخفاقات التى تعرضت لها والمشكلات التى استغرقتها، لأن باكستان كانت نتيجة لرغبة فى إقامة نظام إسلامى ولأن الذين فكروا فيها وقاموا بإنشائها كانت دوافعهم إسلامية.

لقد كانت باكستان «بروفة» لتقديم نظام إسلامى تحت ظروف عصرية وبمعدلات التطور الراهنة. وعلى أنصار الحركات الإسلامية أن يتعلموا ما ينبغى وما لا ينبغى عمله. ويمكن تلخيص التجربة السلبية للباكستان «والتجارب السلبية لها دائما أهميتها» فى النقاط الآتية:

١ – الافتقار إلى الوحدة فى بنية القوى التى وضعت فكرة «إقبال» عن الباكستان موضع التنفيذ. فقد كان من الواضح بعد مولد باكستان أن الجامعة الإسلامية Muslem League قد تألفت كيفما اتفق من عناصر مختلفة بدون أفكار توحّد بينها فيما يتعلق بقضايا مثل كيفية تنظيم الدولة وتنظيم المجتمع، وفى هذا المجال لم تكن «الجامعة» أكثر من تحالف بين أحزاب سياسية. وفى مواجهة الأزمات الكبرى لباكستان لم يستطع هذا التحالف أن يحافظ على وحدته.

٢ – المنحى الشكلى الجامد فى تطبيق المعايير الإسلامية على الواقع الباكستانى، فبدلا من أن يركز العلماء والفقهاء على القضايا الحيوية الحاسمة للتربية والتعليم، استهلكوا طاقاتهم إلى درجة الانقسام فى قضايا جانبية مثل: إلى أى مدى من الشدة ينبغى تطبيق الحدود الشرعية وقانون الزواج. وبينما كانت المناقشات تجرى حول ما إذا كان من الضرورى قطع يد السارق أو الاكتفاء بإرساله إلى السجن، ظهرت أنواع

(٩٩) كان هذا قبل ظهور الجمهورية الإسلامية فى إيران. «المترجم».

خطيرة من السرقة والفساد وتفشت فى المجتمع ، مما أدى إلى كوارث هزت أركان الدولة الباكستانية .

إن العبر المستخلصة من عشرين سنة من الوجود الباكستانى أصبحت واضحة جلية :

أولها : أن النضال من أجل بناء نظام إسلامى وإعادة بناء مجتمع مسلم بكل ما فى الكلمة من معنى يمكن أن يتحقق فقط بقيادة أفراد حكماء مخلصين على رأس منظمة متجانسة ذات عزم وتصميم . ولا تحتاج هذه المنظمة أن تكون على غرار الأحزاب السياسية التى تعج بها ساحة الديمقراطية الغربية ، وإنما هى حركة مؤسسة على أيديولوجية إسلامية يتمثل فى أعضائها قيم أخلاقية وفكرية واضحة .

ثانيها : أن النضال من أجل بناء نظام إسلامى اليوم لابد أن ينصب على أساسيات الإسلام ، وهذا يعنى التأكيد على التربية الدينية والأخلاقية للشعب جنبا إلى جنب مع أساسيات العدالة الاجتماعية . أما الالتفات إلى الشكل الخارجى للأمور فذو أهمية ثانوية فى الوقت الراهن .

ثالثها : ليست مهمة الجمهورية الإسلامية - بالدرجة الأولى - إعلان المساواة بين الناس والأخوّة بين المسلمين ، وإنما الجهاد لتطبيق هذه المبادئ السامية فى الحياة العملية . إن صحوة الإسلام أينما وجدت ينبغى أن تحمل راية نظام اجتماعى أكثر عدالة وأن توضح بما لا يدع مجالا للشك أن الجهاد يبدأ بالحرب على الجهل والظلم والفقر . . حرب لاهوادة فيها ولا انسحاب منها . فإذا أخفقت فى هذه المهمة فسوف يلتقط الراية الغوغائيون وأدعياء إنقاذ المجتمع لتحقيق أهدافهم المنافقة .

لهذه العبر مذاق مرّ ومع ذلك فإننا مازلنا نعتقد فى باكستان ورسالتها فى خدمة الإسلام العالمى ، فلا يوجد قلب مسلم لا يخفق عند ذكر شىء عزيز علينا مثل باكستان حتى ولو كان هذا الحب - مثل غيره - لا يخلو من الخوف والقلق . إن باكستان أمل كبير مُفْعم بالمحاولات والإغراءات .

الجامعة الإسلامية والقومية:

فى بعض الحجج التى سُقْناها تأييداً للنظام الإسلامى اليوم ذكرنا أن الاتجاه إلى توحيد كل المسلمين وكل المجتمعات الإسلامية فى العالم هو وظيفة طبيعية للنظام الإسلامى . . وبالنسبة للأوضاع الراهنة يحتاج الأمر إلى جهاد لإقامة وحدة إسلامية كبرى من المغرب إلى أندونيسيا ومن المناطق الحارة فى أفريقيا إلى وسط آسيا .

ونحن نعلم تمام العلم أن الإفصاح عن هذه الرؤية يعكر صفو نوع من الناس فى أوساطنا، يدّعون أو يعتبرون أنفسهم «واقعيين». ومع ذلك فنحن نؤكد هذا الهدف بصوت عال وبوضوح تام، حيث نفضل أن نتجاهل هذه «الواقعية» المزعومة التى تحكم على الشعوّب المسلمة بأن تبقى فى وضع مهين إلى الأبد غير تاركين لها مجالا للمحاولة أو الأمل. والحق أن هذه «الواقعية» مصدرها الجبن والخضوع لسطوة الأقوياء فى هذا العالم.

منطق هذه الواقعية يقول: ينبغى للسادة أن يظلّوا أسيادا وأن يبقى العبيد عبيداً. غير أن التاريخ - كما سبق أن أشرنا - ليس فقط قصة التغيير المستمر وإنما هو أيضا قصة التحقيق المستمر للمستحيل وغير المتوقع. فكل شىء تقريبا مما نراه اليوم يصنع عالمنا المعاصر كان يبدو مستحيلا قبل خمسين سنة.

ومن البين الواضح أنه يوجد نوعان من الواقعية: واقعيتنا نحن وواقعية الضعفاء الجبناء. فنحن نعتقد أنه لا يوجد ما هو أقرب إلى طبيعة الأمور وإلى الواقعية من مطلب اتحاد المسلمين بشتى أشكال الوحدة ليكونوا أقدر على معالجة مشكلاتهم المشتركة، وأن يتجهوا بصورة تدريجية نحو بناء مؤسسات اقتصادية وثقافية وسياسية - تتجاوز القوميات - لكى يحققوا التنسيق والعمل المشترك فى هذه المجالات الهامة. هذه الفكرة تبدو لأصحاب «الواقعية» (أو قل الضعفاء منا) فكرة غير عملية. . ذلك لأنهم يقدسون الأمر الواقع. . وهو فى نظر فهمنا للواقعية نموذج صارخ لما هو غير طبيعى بل ما هو عبثىّ مناف للعقل. فمثلا نحن نجد من غير المقبول نهائيا وغير واقعى فى هذا العصر وهو عصر التجمعات والتكتلات أن نجد شعبا واحدا هو الشعب العربى مجزّءاً إلى ثلاث عشرة دولة منفصلة، وأن نرى الدول المسلمة تتخذ مواقف متعارضة فى العديد من القضايا الدولية الهامة، وأن نرى المسلمين فى مصر لا يعبئون بمعاناة إخوانهم المسلمين فى أثيوبيا وكشمير. . وأنه فى قمة الصدام بين العرب وإسرائيل يحتفظ المسلمون فى إيران بعلاقات صداقة مع المعتدى (١٠٠). . وهكذا وهكذا.

فإذا كان هناك - حقيقة - ما هو غير واقعى فليس هو وحدة المسلمين وإنما غياب هذه الوحدة بل الأدهى من ذلك استمرار حالة الانقسام والتنافر التى نراها اليوم بين المسلمين (١٠١).

(١٠٠) حدث هذا فى عهد الشاه قبل قيام الجمهورية الإسلامية فى إيران. «المترجم».

(١٠١) تفاقمت الإوضاع وزادت حدة الخلافات بعد حرب الخليج الثانية. «المترجم».

لا يوجد هدف تاريخى لا يقدر الناس على تحقيقه بالإرادة والجهد المشترك إلا إذا كان هدفا مُضادا للطبيعة أو الحقائق التاريخية.

و«الطوبيا» التى يؤمن بها بعض الناس والتى يناضلون من أجل تحقيقها تتوقف عن أن تكون طوبيا (١٠٢) «عندما تتحقق فى الواقع» أما الضعفاء من أدعياء «الواقعية» عندنا فإنهم غير مؤهلين للإيمان أو للعمل، وهذا هو سر واقعيتهم المهينة.. إنهم عندما يقولون إن وحدة المسلمين حلم لا يمكن تحقيقه فإنهم إنما يعبرون عن عجز يستشعرونه فى أنفسهم.. فالاستحالة ليست فى العالم الخارجى بل فى صميم قلوبهم. إن فكرة وحدة جميع المسلمين ليست من اختراع إنسان ولا هى رغبة جامحة لمصلح أيديولوجى بل من صميم القرآن: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾(١٠٣) وهى بديهية حافظ عليها الإسلام وحرص على أن تظل مجددة فى قلوب المسلمين وعقولهم من خلال فريضة الصوم التى يشارك فيها جميع المسلمين، ومن خلال فريضة الحج حيث يتجمع المسلمون من أنحاء الأرض فى البيت الحرام حيث الكعبة المشرفة أقدس بيوت الله وأعظمها على وجه الأرض. وهكذا يبث الإسلام شعورا واحدا متصلا بالانتماء والوحدة فى أرجاء العالم المسلم.. وأى شخص أتيحت له فرصة لقاء الناس البسطاء فى شوارع البلاد المسلمة عقب أى كارثة تحل ببلد مسلم سوف يتأكد بنفسه من قوة الشعور بالتعاطف والتضامن الذى يكنه المسلمون لإخوانهم فى هذا البلد المنكوب.

فكيف إذن تبقى هذه «الوحدة الإسلامية الشعبية» مجرد مشاعر فياضة لدى الجماهير ولكن بلا تأثير ملموس فى الحياة اليومية والسياسية العملية للبلاد المسلمة؟.

لماذا تبقى مقتصرة على المشاعر ولا ترقى إلى مستوى الوعى الحقيقى بالمصير المشترك؟ كيف يمكن تفسير حقيقة أنه برغم أخبار معاناة المسلمين فى فلسطين وسنكيانج وكشمير وأثيوبيا (١٠٤) تثير مشاعر الاكتئاب والاستنكار الجماعى فى كل مكان ومع ذلك نجد أن العمل إما مفقودا تماما، وإذا وجد فليس على مستوى قوة المشاعر؟.

وجواب ذلك يكمن فى حقيقة تتناقض مع مشاعر الجماهير المسلمة: إنه أمر مقصود وليس من قبيل الصدفة، والمسئول عن ذلك هم القادة والزعماء الذين تعلموا فى

---

(١٠٢) انظر هامش رقم «٣» فى مقدمة المؤلف.

(١٠٣) سورة الحجرات: آية ١٠ وانظر أيضا آية ٩٢ من سورة الأنبياء: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾.

(١٠٤) هذه قائمة قديمة، ولا تزال قائمة الضحايا من الأقليات المسلمة فى زيادة مستمرة وقد أضيف إليها مؤخرا وطن المؤلف نفسه «البوسنة والهرسك». المترجم.

الغرب أو فى معاهد تعليمية خاضعة للغرب، فهؤلاء قلوبهم مع النزعات القومية وليست مع الوحدة الإسلامية . . ومن هنا حدث الانفصام بين مشاعر الشعوب ووعى القادة. ومع استمرار هذا الوضع أصبح كل عمل فعال مستحيلا وسيظل كذلك (ما لم تتغير هذه التركيبة).

ومهمة الوحدة الإسلامية المعاصرة ـ بصفة مبدئية ـ هى محاولة التوفيق بين المشاعر والوعى بحيث نتقبل هويتنا الحقيقية وننبذ ما ليس منها. وسيكون من شأن هذا الوضع أن يحدد طبيعة القومية ومصيرها فى العالم المسلم.

لقد نشأت القوميات فى العالم كحركات شعبية للتأكيد على خصائص الشعوب الثقافية كما تتمثل فى «الموسيقا والفنون الشعبية وبالأخص اللغة» ولكننا رأينا فى بلاد المسلمين طرازا ممسوخا من القوميات فهى قوميات «لا قومية» أو قوميات فى مظهرها، وتفكيك للقومية فى الواقع العملى. . وتعليل ذلك يكمن فى حقيقتين: الحقيقة الأولى هى أن الشعور العام للجماهير المسلمة قد تشرب الوحدة الإسلامية «فى نسيجه الوجدانى». والحقيقة الثانية أن فكرة القومية نُظر إليها باعتبارها بديلا عن الإسلام، ولذلك تم تحييدها كحركة مضادة للإسلام (١٠٥) وقد وجد دعاة القومية فى كثير من بلاد المسلمين أنفسهم فى تصادم تلقائى مع ماضى الشعوب المسلمة وتقاليدها، وهو ماض إسلامى وتقاليد إسلامية. ومن ثم شرع دعاة القومية فى القيام بنوع من تفكيك القومية استمرارا للدور الذى كان يقوم به المستعمر سابقا. وليس أدل على ذلك من وضع اللغة العربية فى بعض البلاد العربية، وهو وضع ليس أفضل كثيرا من وضعها أثناء الاحتلال الإنجليزى ـ الفرنسى، وذلك لأن موقف الإدارة الوطنية– فى هذه الناحية– لم يكن أفضل كثيرا من موقف المستعمر الأجنبى. . وحتى عندما يتم شىء فى سبيل تحسين هذا الوضع فإنه يتم بدون حماس صادق (١٠٦) والسبب فى هذا الموقف سبب بسيط: هو أن اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة الحضارة الإسلامية. إذن فاللغة العربية اداة إسلامية

---

(١٠٥) ثمة خلط بين النزعة القومية كأيديولوجية «بمدلولها الغربى» كما تتبناها بعض الأحزاب العربية الشهيرة وبين الوحدة العربية كما تتطلع إليها الجماهير. ونتيجة لهذا الالتباس أقام بعض المثقفين تعارضا بين الوحدة العربية وبين النزعة الإسلامية فى حين أنه لا يوجد تعارض حقيقى بينهما. كذلك غالى أصحاب النزعة الوطنية الضيقة فرفضوا العروبة والوحدة العربية فى حين أنه لا تعارض بين العروبة وبين الوطنية فالعروبة أوسع وأشمل وهى تثرى الوطنية وتقويها. وقد دافع «رجاء النقاش» عن عروبة مصر وفند مزاعم أصحاب النزعة المصرية الضيقة فى كتاب خصصه لهذا الغرض. أما الدكتور يوسف القرضاوى فلا يرى أى تعارض بين النزعات الثلاث: الوطنية والعربية والإسلامية بل يراها حلقات متداخلة لا تنفى إحداها الأخرى بل تدعمها وترسخها. انظر كتاب «الإسلام والعلمانية». . ص ١٩٩ «المترجم».

(١٠٦) بالمقارنة: لقد أعاد اليهود إحياء لغتهم القديمة التى كادت أن تندثر وتتلاشى فى زوايا النسيان.

أكثر منها أداة عربية، أو أداة للوحدة العربية. . ولقد أدرك زعماء القومية أو الوطنية الضيقة هذه الحقيقة إدراكا تاما ووجدوا لذلك حلا لا سابقة له فى تاريخ العرب: أن يستخدموا هم وأجهزتهم لغة المستعمر السابق! . ولكن فى العالم المسلم- لا يمكن أن تقوم وطنية حقيقية بدون إسلام.

وخلاصة الأمر أن كل الشواهد السابقة تؤكد-بما لا يدع مجالا للشك- أن الأفكار القومية فى عالم المسلمين جاءت من مصادر غير إسلامية، ويبدو هذا أكثر وضوحا فى حالة الشرق الأوسط حيث كان روّاد القومية من المفكرين السوريين والمسيحيين اللبنانيين الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعة الأمريكية (الكلية السورية البروتستانتينية سابقا) وفى جامعة سانت جوزيف ببيروت. واستقراء الجذور الروحية والتاريخية لحركة «أتاتورك» فى تركيا وحركة «سوكارنو» (بانتشاسيلا)(١٠٧) وحزب البعث فى البلاد العربية (على الأخص بعض فروعه)، إلى جانب عدد كبير من الحركات القومية و«الثورية» فى أنحاء العالم المسلم - استقراء هذه الحركات جميعا يؤكد استنتاجاتنا عنها: أن الوحدة الاسلامية تنبع دائما من أعماق قلوب الشعوب المسلمة أما القومية فقد كانت دائما بضاعة مستوردة.

لذلك فإن الشعوب المسلمة لا تملك «الموهبة» للتعلق بالقومية فهل نذرف الدموع على هذه الحالة؟!

إننا حتى لو تجاهلنا - ولو للحظة- الحقيقة الساطعة أن مبدأ الجماعة الروحية (الأمة بمعناها القرآنى) أسمى من مبدأ القومية لبقى علينا أن ننصح شعوبنا ألا تحاول اكتساب هذه «الموهبة».

والشعوب التى عاشت قرونا فى مجتمعات قومية أصبح عليها اليوم أن تتكيف لأشكال جديدة من الحياة المشتركة تمكنها من التكتل على قاعدة من الوحدة أوسع من القومية. ونرى اليوم فى ألمانيا وفرنسا رجالا حكماء بعيدى النظر ينصحون شعوبهم بأن يكون شعورهم بفرنسيتهم وألمانيتهم أقل من شعورهم بأنهم أوربيون. لقد كان إنشاء السوق الأوربية المشتركة- وإن كانت فكرتها غير مقبولة لأول وهلة- أعظم لحظة إيجابية فى تاريخ أوربا القرن العشرين. فهذه المنظمة التى تسمو على القوميات تعتبر أول انتصار حقيقى للشعوب الأوربية على القوميات التى أصبحت ترفا باهظ التكاليف بالنسبة للشعوب الصغيرة بل حتى المتوسطة والكبيرة.

يشهد العالم الحديث اليوم تطورا لم يسبق له مثيل فى التاريخ، فقد أصبحت

(١٠٧) بانتشا سيلا: مبادئ سوكارنو الخمسة المعروفة.

البرامج والمشروعات فى مجالات التعليم والبحث العلمى والاقتصاد والدفاع تتكلف أرقاما فلكية، فهى تتطلب حشدا من القوى البشرية وتجميع الموارد مما لاقبل للأمم الكبرى بها ناهيك عن الامم المتوسطة أو الصغرى، إنها لا تتوافر إلا لتجمعات من الأمم. وهناك اليوم اتحادان يسيطران على العالم وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى(١٠٨) وفى الطريق الآن اتحاد ثالث هو الاتحاد الاوربى. . إن دولة لا تستطيع حشد مائتى مليون نسمة من السكان وأن تحقق مائتى مليار من الدولارات فى دخلها القومى- لا يمكن ان تواصل التقدم خطوة واحدة، وعليها أن تقنع بمركز متواضع فى هذا العالم. . إنها لا تستطيع أن تحكم نفسها ناهيك بحكم غيرها. ولم تعد معدلات النمو عاملا حاسما فى تقييم الأمم فقد حلت مكانها تلك الأرقام التى أشرنا إليها. فلا شك أن التنمية الصينية أقل بكثير من التنمية فى فرنسا وإنجلترا ولكنها بفضل الحشد الهائل من البشر والموارد تبدى فى مجال المنافسة الراهنة تفوقا ملحوظا. هذا الوضع يعنى أن هنالك فرصة أمام العالم المسلم- وهو عالم متخلف- ولكنه فسيح الأرجاء يفيض بالثروات الطبيعية.

وهناك أمر آخر يتطلب جهودا عاجلة مكثفة فى البلاد المسلمة. فالتخلف الاقتصادى والفكرى فى هذه البلاد يزداد يوما بعد يوم نتيجة للزيادة المطردة فى تعداد السكان. فمثلا فى مصر وباكستان أكبر معدلات الزيادة السكانية فى العالم اليوم. وطبقا لبعض التقديرات يستقبل العالم المسلم كل عام عشرين مليون مولود جديد فإذا استمر النمو السكانى بالمعدلات الراهنة فإن العالم المسلم سيتضاعف عدده داخل حدوده الحالية فى نهاية هذا القرن. فهل نستطيع حينئذ أن نستقبل، ونطعم ونوفر أماكن فى المدارس، ونوفر أعمالاً ووظائف لهذه الملايين التى نتوقع ولادتها؟ هذا النمو الدرامى للسكان إذا لم يصحبه - على نفس المستوى من السرعة- تقدم اقتصادى واجتماعى فإنه ينطوى على مخاطر كثيرة لا يعلم مداها إلا الله. لقد ابتلع هذا التضخم السكانى كل زيادة فى الإنتاج بحيث أصبح الدخل القومى فى اكثر البلاد المسلمة اليوم أدنى مما كان عليه منذ عقدين سابقين. وبدلا من أن تكون هذه الزيادة السكانية عنصر قوة فى عالم إسلامى متّحد، أصبحت مصدر بلاء وأزمات ومدعاة لليأس فى عالم مقطّع الأوصال.

---

(١٠٨) ذهب الاتحاد السوفيتى إلى متحف التاريخ، ويبرز الآن على الساحة كقوى اقتصادية وسياسية كبرى: الصين واليابان وما يطلقون عليه نمور جنوب شرق آسيا. بل إن الولايات المتحدة - لكى تضمن استمرار تفوقها فى مجال هذا الصراع العالمى سعت إلى إنشاء وحدة اقتصادية يطلق عليها «نفتا» NAFTA وهى تضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك فمتى نسمع عن وحدة عربية أو إسلامية؟! «المترجم».

ومن الواضح أن البلاد المسلمة كل واحدة بمفردها لا تستطيع أن تتغلب على هذه المشكلة. ولكننا نستطيع أن نواجه هذا الوضع - وفى نفس الوقت - نعوض سنوات التخلف والجمود من خلال نوع جديد من الوحدة. فما لا يقدر على حله العرب أو الأتراك أو الإيرانيون أو الباكسانيون وحدهم يستطيع المسلمون جميعا حله بجهد مشترك موحد.

كل دولة مسلمة لا يمكنها أن تبنى رخاءها وحريتها إلا إذا كانت بفعلها هذا تبنى أيضا رخاء وحرية جميع المسلمين. فالكويت وليبيا - وهما دولتان غنيتان - لا يمكنهما أن يبقيا جزيرتين من الرخاء فى بحر من البؤس والشقاء. فإذا لم تبرهن الدولتان على رغبتهما فى التضامن الإسلامى وعلى إرادتها مساعدة جيرانهما من البلاد المسلمة الأخرى، وإذا سيطرت عليهما بدلا من ذلك الأثرة والأنانية. ألا يكون هذا دعوة لأن تحذو حذوهما الدول المسلمة الأخرى؟ مما يؤدى إلى الكراهية والاضطراب الذى يطمع فيه الأعداء؟ إن الدول المسلمة الغنية عندما تقوم بواجبها الإسلامى فإنها بذلك إنما تتصرف بما يحقق مصالحها الخاصة على أحسن وجه.

البديل الذى لا مفر منه أمام كل دولة مسلمة واضح: فإما أن تتحد مع غيرها من الدول المسلمة الأخرى فتضمن بهذا الاتحاد بقاءها وتقدمها وقوتها فى مواجهة مطامع الأعداء، وإما أن يزداد تخلفها يوما بعد يوم ثم ينتهى بها المصير إلى السقوط فى هوة التبعية تحت رحمة الدول الأجنبية الغنية.

واللحظة التاريخية الراهنة تعطى لهذه الوحدة بعدا جديدا: فالوحدة لم تعد مجرد أمنية طيبة تداعب خيال المثاليين والحالمين، وإنما أصبحت الوحدة ضرورة لا مناص منها، بل أصبحت قانونا للبقاء وشرطا لاحترام الذات فى عالمنا المعاصر، وأما الذين يكرّسون التشرذم الراهن بين الدول المسلمة لأى سبب أو دافع فإنهم يقفون بمقاصدهم وأهدافهم فى صفوف الأعداء.(١٠٩)

---

(١٠٩) كان مالك بن نبى المفكر الإسلامى «الجزائرى الموطن» يعتقد أن بلاد العالم الإسلامى فى مجموعها تمتلك من الثروات الطبيعية والقوى البشرية ما تستطيع به - مع توافر شروط إنسانية معينة - أن تصنع أعظم حضارة فى العصر الحديث وأن حالة الشلل التى تصيب العالم الإسلامى ترجع إلى شرذمة هذه المصادر وحبسها بين جدران قلاع وطنية وقبلية مصطنعة وحرمان القوى البشرية وطاقاتها الهائلة من استثمار هذه المصادر، وهى حالة يطلق عليها مالك بن نبى «اللافعالية» انظر كتاب مالك «شروط النهضة ومشكلات الحضارة» «ترجمة عبدالصبور شاهين ١٩٥٦».

المسيحية واليهودية:

نظرا لضيق المجال فى هذه الرسالة لا يمكننا أن نعرض لموقف الاسلام من جميع العقائد والنظم غير الاسلامية إلا أنه من الضرورى أن نوضح موقفه من الديانتين الأساسيتين: المسيحية واليهودية(١١٠) ومن النظامين المسيطرين على العالم وهما الرأسمالية والاشتراكية(١١١)

نحن بالنسبة للمسيحية- نفرّق بين تعاليم المسيح وبين الكنيسة. أما تعاليم المسيح فهى وحى من الله لحق به تحريف فى بعض المواضع، وأما الكنيسة- وقد استقرت كمؤسسة قائمة على نظام كهنوتى هرمى ذى مراتب ودرجات- فقد أصبحت بتنظيمها وسياستها وثرواتها ومصالحها لا ضدّ الإسلام فحسب بل ضد المسيح نفسه. وإن أى شخص يُراد منه أن يحدد موقفه تجاه المسيحية فمن حقه أن يسأل: هل المقصود بالسؤال تعاليم المسيح أم محاكم التفتيش، ذلك لأن الكنيسة خلال تاريخها كانت تتأرجح دائما بين هذين القطبين فكلما أصبحت أقرب إلى التعبير عن تعاليم الإنجيل الأخلاقية كلما كانت بعيدة عن محاكم التفتيش، ومن ثم أقرب إلى الإسلام. ونحن نقدّر الاتجاهات الجديدة التى أعلنها مؤخرا مؤتمر الفاتيكان حيث نرى فيها اقترابا من المعتقدات المسيحية الأصيلة. ومن الممكن- إذا أراد المسيحيون- أن يشهد المستقبل فرصة للتفاهم والتعاون بين الديانتين العظيمتين لصالح الشعوب ولصالح الإنسانية بصفة عامة، خلافا لما كان يحدث فى الماضى من معارك بدافع من التعصب والصراع الأحمق.

وموقف الإسلام تجاه اليهودية يقوم على نفس الأساس. فقد عشنا مع اليهود قرونا، بل أقمنا معهم بناء ثقافيا مشتركا يصعب- فى بعض الحالات- التمييز على وجه التحديد بين ما هو إسلامى وما هو يهودى فى هذا البناء.(١١٢)

ولكن تحت قيادة الصهيونية بادر اليهود بعمل لا إنسانى ظالم فى فلسطين بقدر ماكان قصير النظر متهوراً. لقد أخذت هذه السياسة فى حسابها فقط حالة العلاقات اللحظية المؤقتة، وتجاهلت العوامل الثابتة والتوازن العام للقُوى بين اليهود والمسلمين فى العالم. لقد ألقت الصهيونية قفاز التحدى فى وجه العالم المسلم كله. فالقدس ليست قضية الفلسطينيين وحدهم ولا حتى قضية العرب وحدهم. إنها قضية جميع

---

(١٠٩) انظر كتاب على عزت «الإسلام بين الشرق والغرب» ص ٢٧١-٢٨٩ «المترجم».

(١١٠) المصدر السابق ص ٣٥٤-٣٦٧ «المترجم».

(١١١) يشير المؤلف هنا إلى الحضارة الإسلامية فى الأندلس. «المترجم».

الشعوب المسلمة. ولكى يحتفظ اليهود بالقدس عليهم أن يقهروا الإسلام والمسلمين جميعا، وهذا- بفضل الله- أمر يتجاوز حدود قدرتهم.

يهمنا أن نميز بين شيئين: اليهود والصهاينة، ذلك إذا كان فى استطاعة اليهود أنفسهم أن تكون لديهم الشجاعة لتأكيد هذا الاختلاف. إننا نأمل أن الانتصارات التى أحرزها اليهود ضد الأنظمة العربية المنقسمة (وليس ضد العرب ولا ضد المسلمين)- لن تحجب عنهم الرؤية الصحيحة والفهم الصحيح، وأن يشرعوا فى إزالة المواجهة التى خلقوها بأنفسهم، حتى يتمهّد الطريق للمعايشة على الأرض الفلسطينية، أما إذا أصرّ اليهود على السير فى طريق الغطرسة- وهو ما يبدو حتى هذه اللحظة الأكثر احتمالا- فلا خيار أمام الحركة الاسلامية وأمام المسلمين جميعا فى أنحاء العالم إلا أن يستمروا فى الجهاد، وأن يوسعوا رقعته طولا وعرضا.. يوما بعد يوم.. وعاما بعد عام.. مهما عظمت التضحيات ومهما طال أمد المعركة، حتى يضطر اليهود إلى إعادة كل شبر من الأرض المغتصبة. وأى مساومة أو تسوية تعرض للخطر الحقوق الشرعية لإخواننا فى فلسطين إنما هى خيانة من شأنها أن تهدم النظام الأخلاقى الذى يرتكز عليه عالمنا.

ليست هذه الأفكار ـ انعكاسا لسياسة جديدة للإسلام تجاه المسيحيين أو اليهود أملتها ظروف مرحلية مؤقتة وإنما هى استنتاجات مستقاة من المبادىء الإسلامية فى الاعتراف بالمسيحية واليهودية كما تقررت فى القرآن الكريم، ونورد فيما يلى شواهد قرآنية تؤكد هذه المبادئ:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ سورة العنكبوت: آية ٤٦.

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ سورة البقرة: آية ١٣٦.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ سورة المائدة: آية ٤٧ - ٤٩.

الرأسمالية والاشتراكية:

تُرى فى أى صورة بنيوية وفى أى قالب سياسى ينبغى للنهضة الإسلامية اليوم أن تتشكل؟ وهل توجد صورة معينة من صور المؤسسات والمجتمعات فى الحضارة الغربية كالديمقراطية النيابية أو الرأسمالية أو الاشتراكية تصلح للمجتمع الإسلامى، وهل سيكون لزاما على مجتمعنا أن يتابع فى مسيرته هذه الصور وأشباهها؟.

لقد استحكمت- خلال القرنين الماضيين- فكرة أن جميع الدول لابد فى النهاية أن تتحول الى الديمقراطية النيابية. وقد أثبتت التطورات الحديثة خصوصا فى فترة ما بين الحربين العالميتين عكس هذه الفكرة فى بعض الحالات، واتضح أن الديمقراطية التقليدية ليست مرحلة حتمية للتطور الاجتماعى والسياسى للمجتمعات. وعلى الطرف الآخر هناك من يحاول اليوم أن يثبت أن الاشتراكية هى الاتجاه الأساسى الذى يتحرك إليه المجتمع الإنسانى سواء رغب فى ذلك أو لم يرغب. إلا أن التطورات المعاصرة فى الدول الرأسمالية بأوربا وأمريكا تنكر بإصرار هذه النبوءة التى تتذرع بالحتمية التاريخية وتشير الى أوجه غير متوقعة للتطور، وفى جانب آخر من العالم (فى اليابان) حدثت قفزة من الاقتصاد الاقطاعى مباشرة إلى ما يمكن أن يسمى فى أوربا بصورة أعلى من الاحتكار الرأسمالى. فالأنماط التى اعتاد الناس على تصنيف التطور التاريخى بمقتضاها أصحبت نسبية جدا وإذا وجدت أى قواعد لتطور المجتمع فمن الواضح أنها ليست تلك القواعد التى وضعها الفكر الأوربى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.(١١٣)

هذه الحتمية الوهمية التى عملت على قمع ضمير الأجيال الأخيرة قد استغلت كوسيلة نفسية قوية لترويج الأفكار التى رسبت فى عقول الناس أن نظم الحكم هى التى تجلب الرخاء وتحل المشاكل. والواقع أن النظام الحاكم لا يؤثر فى أوضاع بلد ما إلا بمقدار ما يستطيعه من تنشيط للعمل وتنظيمه تنظيما مباشرا، فالعمل هو المصدر الحقيقى لجميع الثروات.

فإذا تحررنا من «هَوَس» الحتمية التاريخية والتفتنا الى وسطيّة الإسلام يمكننا- بدون أى تعصّبات- أن نكتشفَ ما تنطوى عليه هذه الأنظمة القائمة من جوانب الخير والشر، لا باعتبارها رأسمالية أو اشتراكية ولكن باعتبارها تجارب معينة تمارسها المجتمعات المعاصرة.

---

(١١٣) انظر كتاب «على عزت» «الإسلام بين الشرق والغرب» ص ٣٥٤-٣٦٠ تحت عنوان «ماركس والماركسية». «المترجم».

إن الرأسمالية والاشتراكية فى صورتهما الأصلية الخالصة لم يعد لهما وجود فى الواقع فقد تجاوزتهما التطورات السريعة التى حدثت عقب الحرب العالمية الثانية . إلا أن الاقتصاد السياسى الماركسى المتحجر - الذى خرج من نطاق العلم وأصبح بالتدريج صناعة سياسية - يستمر فى تكرار عباراته التقليدية كأن شيئا لم يتغير فى هذا العالم على مدى الخمسين عاما الماضية . وإننا لنستطيع أن نحكم - استنادا إلى شواهد كثيرة ذات دلالة - بأن المعايير التى تفرق بين ما هو رأسمالى وما هو اشتراكى توشك أن تكون غير كافية لتحديد الظواهر الاقتصادية والاجتماعية فى المستقبل القريب .

فإذا كان علينا - تبعا لذلك - أن ندع الشعارات والمصطلحات المضلّلة جانبا ، وأن نأخذ فى حسابنا فقط الحقائق التى نراها ماثلة أمامنا فيجب أن نعترف بالتطور الهائل فى العالم الرأسمالى خلال الثلاثين سنة الماضية التى كشفت عن حيويته وقدرته على دفع عجلة العلم والاقتصاد إلى الأمام إلى جانب أنه استطاع أن يتيح درجة أعلى من الحرية السياسية والأمن القانونى .

كما أنه لا يمكننا أن نتغاضى عن إنجازات النظام الاشتراكى وخصوصا فى مجال تعبئة الموارد المادية وفى التعليم وفى القضاء على صور الفقر التقليدية .

ومن ناحية أخرى لا يسعنا أن نتغاضى عن جوانب مظلمة وغير مقبولة فى التقدمات الرأسمالية والاشتراكية ، ولا أن نتجاهل الكوارث الكبرى التى تزلزل كلا من النظامين من وقت لآخر .

ولاشك أن الانفتاح العملى للإسلام فى مجال حل المشكلات يجعله فى وضع متميز يمكنه من دراسة التجارب الإيجابية والسلبية للآخرين بدون تعصبات ، ولا سيما تجارب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى واليابان . فهذه الدول الثلاث تمثل من حيث المبدأ والممارسة مداخل شديدة الاختلاف فى معالجة القضايا الاساسية للرخاء والقوة .

وقد أثبت تطور الرأسمالية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة وجود أخطاء موروثة فى بعض الفروض الأساسية للماركسية نذكر منها ثلاثة فيما يلى :

١ - لم يثبت أن التناقض بين القوى المنتجة ، وبين علاقات الإنتاج فى النظام الرأسمالى قَدر محتوم ، فالرأسمالية لم تتغلب فقط على هذا التناقض ، ولكنها حققت إلى جانب ذلك تقدمات لم يسبق لها مثيل من قبل فى مجالات انطلاق الإنتاج والعلم وإنتاجية العمل .

٢- أن الطبقة العاملة فى أكبر الدول الرأسمالية لم تلجأ إلى طريق الثورة.

٣- أن العلاقة بين الوجود والوعى أو بين «القاعدة» و «البنية الفوقية» ليست كما تنبأ ماركس، فأمامنا رأسمالية فى السويد ورأسمالية فى الأرجنتين والاختلافات فى «القاعدة» فى هذين البلدين اختلافات فى الدرجة. أما الاختلافات فى بنياتهما الفوقية (من أشكال السلطة السياسية والقوانين والدين والفلسفة السائدة والفنون.. إلخ) فهى اختلافات جذرية.

التطور فى العالم- إذن- لم يسلك الطريق الذى رسمه له ماركس. وهكذا وجدنا الدول المتقدمة تحتفظ بنظمها الرأسمالية وظلت تطورها. بينما جاءت الاشتراكية إلى السلطة فى عدد من الدول المتخلفة التى تعتبر من وجهة نظر الماركسية شذوذا لا تفسير له.(١١٤)

فبم نعلل اهتمام البلاد المتخلفة بأشكال معينة من الاقتصاد الاشتراكى؟.

أولا: لقد ثبتت فائدة هذا الاتجاه فى تنظيم اقتصاد ضخم مناسب لدول لا تملك نقاط بداية بمعنى أنه ليس لديها رأسمال ولا موارد فنية كافية ولا نظام عمل متطور.. إلخ.

ثانيا: إن البيئات الأكثر تخلفا سرعان ما تتكيف بسهولة لأنواع مختلفة من القيود (كتقييد الحرية الشخصية، والمركزية والسلطة القوية.. إلخ) وهى قيود عادة ما تصحب أنواعا معينة من الاشتراكية.

ثالثا: على الرغم من أن الاشتراكية قد استبعدت من أن تكون علما فإنها استمرت فى البقاء كأسطورة ومغامرة، وهذا الجانب الهام فى الاشتراكية يفسر أثرها الأقوى بالدول الكاثوليكية واللاتينية عنه بالدول البروتستانتينية والجرمانية.(١١٥)

وعلى النقيض من ذلك فإن الروح البرجماتية (العملية) للرأسمالية هى أكثر

---

(١١٤) يقول «على عزت»: «إن اضطراب التفسيرات المادية للأحداث التاريخية من السهل التدليل عليه بتحليل أى فترة من فترات التاريخ ولكن- أبعد من هذا- هناك سخرية تاريخية فى حقيقة أنه حتى ظهور الحركات الشيوعية نفسها وظهور الدول الشيوعية.. يعتبر حجة ضد النظرية المادية فالانقلابات الشيوعية لم تحدث حيث كان ينبغى أن تحدث طبقا لهذه النظرية.. ولم يكن نجاح الحركات الشيوعية حيث توافرت الظروف الموضوعية، وإنما حيث توافرت عناصر شخصية غير موضوعية: أى ظهور حزب شيوعى قوى أو بتدخل من قوة أجنبية. انظر المصدر السابق ص٣٥٦ «المترجم».

(١١٥) انظر المصدر السابق تحت عنوان «التسوية التاريخية» ص٣٨٢-٣٨٩

صلاحية لعقلانية مجتمع متقدم. ولقد ثبت أن الأشكال المتقدمة من الاقتصاد الرأسمالى تعمل بنجاح فى مجتمع يتمتع بحكومة ديمقراطية، مجتمع على مستوى ثقافى عال كما يتمتع بدرجة عالية من الحرية الشخصية والسياسية وفى إطار ظروف كهذه يمكن تحييد بعض الجوانب غير الانسانية فى الاقتصاد الرأسمالى إلى درجة كبيرة بدون أن يؤثر هذا على كفاءته.(١١٦)

ومن ثم فإن قصة حتمية هذا النظام أو ذاك هى فى التحليل النهائى مجرد وهم. أما الذى هو ضرورى ولا مفر منه فى الحقيقة فهو دوام حركة الاقتصاد المدعم بالتقدم العلمى والتقنى المستمر، كذلك فإن تحسين عملية الإنتاج وتحسين أدوات الإنتاج هو النشاط الوحيد الذى «يجب» أن يحوز على اهتمام الناس.

وإذن فلا الإسلام ولا العالم على نطاق أوسع مواجه بحتمية رأسمالية أو اشتراكية فمثل هذه الحتمية ليست أكثر من وهم لا وجود له، وإنما الذى يواجهنا هو مسألة اختيار نظام للعلاقات بين الملكية والإنتاج.. والعمل المتواصل لتحسين هذه العلاقة بحيث تصبح على مستوى عال من الكفاءة وعلى اتساق بالمفهوم الإسلامى للعدالة الاجتماعية التى من شأنها أن تحفز الناس على النشاط والعمل بأحسن الوسائل الممكنة، وأن تتصدى لحل المشكلات التى يفرضها التطور فى الإنتاج والتقنية.

(١١٦) مثال ذلك ان المصانع قد تضطر للاستغناء عن بعض الأيدى العاملة نتيجة للكساد الاقتصادى أو التوسع فى استخدام التكنولوجيا الحديثة.. ولكن لا يتعرض العمال للفصل التعسفى ولا تضيع حقوقهم فلهم نقابات عمالية قوية تحميهم ولهم عند الدولة حقوق الكفالة المادية أو ما يسمى بتعويض البطالة إلى جانب أنواع أخرى من الرعاية الاجتماعية. «المترجم».

خلاصــة

لقد عرضنا لبعض الأفكار الرئيسة وبعض المشكلات الجوهرية للنهضة الإسلامية وهى التى تستولى على عقول الناس بصفة متزايدة باعتبارها تحولا عاما للشعوب المسلمة خلقيا وثقافيا وسياسيا. ففى وسط الهزائم المتلاحقة والإحباطات المطبقة تأتى فكرة النهضة الإسلامية لتشيع الأمل من جديد وتفتح طريقا لإنقاذ منطقة فسيحة الأرجاء من هذا العالم.

ولا يوجد مسلم يشعر بأن ارتباطه بالإسلام ليس مجرد صدفة بل ارتباط منهج والتزام- ثم يرفض هذه الرؤية.. إلا أن كثيرا من المسلمين الحيارى سوف يتساءلون: أين لنا بالقوة التى تحقق هذه الرؤية؟.

وللإجابة عن هذا السؤال نشير الى الأجيال المسلمة الناشئة.. إلى هؤلاء الشباب الذين سرعان ما أن يشبوا عن الطوق.. هذه الأجيال التى تشكل ما يقرب من مائة مليون فتى وفتاة أو يزيدون.. ولدوا فى رحاب الاسلام ونشئوا على مرارة الهزائم والامتهان.. وتوحدوا على الوطنية الاسلامية.. هؤلاء الشباب سوف يرفضون العيش على أمجاد الماضى وعلى المعونات الأجنبية، وسوف يجتمعون حول أهداف يتحقق فيها الصدق والحياة والكرامة.. وسيحملون فى قلوبهم القوة القادرة على تحقيق هذه المهمة العسيرة وعلى التصدى لكل التحديات.

لم يكن ممكنا أن يظهر مثل هذا الجيل من قبل، فقد كان علينا أن نعيش عصر الوهم والأخطاء حتى نهايته.. حتى ينكشف لنا بجلاء عجز الآلهة الزائفة وعجز الزعماء والآباء و«المنقذين» للوطن والمصلحين للمجتمع.. وعجز الملوك و«المهدى المنتظر».. فعلى يد هؤلاء جميعا تجرعنا مرارة الهزيمة فى سيناء، وهم الذين وضعوا أندونيسيا فى مهب الأخطار، وهم الذين جعلوا باكستان دائمة الاضطراب.. لقد تحدثوا إلينا كثيرا عن الحرية والرخاء والتقدم ولكننا لم نلق على أيديهم سوى الطغيان والفقر والفساد. كان هذا كله ضروريا لكى نصل إلى لحظة الصحوة.. كان هذا كله ضروريا لميلاد جيل

جديد، يرى بوضوح أن كل هذا لم يكن سوى تيه وضلال لا جدوى فيه . . وأن ثمة طريقا واحدا لخروج العالم الإسلامى مما يتخبط فيه : أن يعود إلى منابعه الروحية والمادية الخاصة به ألا وهى الإسلام والمسلمون.

العالم المسلم اليوم خليط عجيب من أجناس وشعوب وقوانين وسلطات شتى، ولكن يوجد شيء واحد فى كل ركن من أركان هذا العالم يتقبله جميع المسلمين بنفس الاحترام والإخلاص ألا وهو القرآن . . إنه نفس الشعور تجده فى جزيرة جاوه كما تجده فى الهند وفى الجزائر وفى نيجيريا . . شعور بالانتماء لأمة إسلامية واحدة . . هذا الشعور الفطرى بالانتماء الى القرآن والى الأمة الاسلامية كامن فى قلوب ملايين كثيرة من عامة الناس . . إنه شعور يمتلك مخزونا هائلا من الطاقة الكامنة . . ويمثل حقيقية واحدة فى أنحاء العالم المسلم اليوم. ولذلك فإن العالم المسلم يعتبر جماعة روحية ذات أبعاد عالمية . . ولعلها هى الجماعة الروحية الوحيدة متعددة القوميات التى لا تزال حية فى العالم إلى هذا اليوم (بصرف النظر عن كونها لم تحظ بعد بأى قدر من التنظيم).

وكجزء متكامل مع هذه المشاعر . . ونتيجة لتأثير الأخلاق الاسلامية على مدى القرون ـ تصادفنا على صورة حكمة شعبية- أفكار حية تتعلق بالمساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح والرحمة والإحسان والرفق بجميع المخلوقات. هذه الحقائق فى حد ذاتها لا تعنى وجود عالم أفضل وأكثر إنسانية (متحقق بالفعل) ولكنها تعنى وعودا بعالم من هذا القبيل.

هذه المشاعر تدل على أن العالم المسلم لم يمت وإنما لا يزال حيا ينبض بالحياة . . فحيث يوجد الحب والشعور بالأخوة الروحية لا يوجد موت بل حياة. إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة وإنما هو تربة عذراء فى انتظار يد الزارع . وبفضل هذه الحقائق فإن مهمتنا تصبح واقعية قابلة للتحقيق . . إن مهمتنا تتمثل فى تحويل هذه المشاعر (الكامنة) إلى قوى فعالة مؤثرة. فالإخلاص للقرآن لابد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه، وأن تتحول الجماعة الاسلامية المبنية على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة، وأن يتحول حب الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هى المحتوى الأخلاقى والاجتماعى للقوانين والمؤسسات (فى المجتمع الاسلامى الناهض).

فمن الذى سيقوم بهذا التغيير وكيف يمكن تحقيقه؟ .

إن كل عمل يُراد به التأثير على الأحداث لابد أن يكون عملا اجتماعيا . . وكل نضال ناجح لابد أن يكون نضالا مشتركا منظما . . ولن يكون الجيل الجديد قادرا على

القيام بمهمته فى التغيير إلا إذا وضع طموحاته ومثاليته فى قالب حركة منظمة يقترن فيها الحماس والقيم الشخصية للأفراد بأساليب العقل المنسق المشترك وتأسيس مثل هذه الحركة بهدف واحد وبرنامج واحد هو شرط ونقطة انطلاق للنهضة فى كل دولة مسلمة.

على هذه الحركة أن تحشد فى إطار واحد ما قد تم بناؤه بالفعل وترفع بناء ما لم يكتمل بنيانه.. عليها أن تدعو الناس وأن تستنهض الهمم.. وأن تحدد الأهداف وتوفر الوسائل لتحقيقها.. إنها ستبث الحياة والفكر وروح العمل فى كل مكان.. وستصبح الضمير والإرادة لعالم يصحو من نوم طويل عميق.

إننا ونحن نبعث بهذه الرسالة إلى جميع المسلمين فى أنحاء العالم نود أن نؤكد بكل وضوح أنه لا يوجد أرض ميعاد ولا صانعو معجزات ولا مهدى منتظر.. فليس أمامنا سوى طريق واحد فحسب.. هو طريق العمل والجهاد والتضحية.

ولا ينبغى- ونحن فى لحظات الشدة- أن ننسى أمرين: أننا نستمد العون والبركة من الله، والتأييد من إجماع أمتنا ورضاها.

أعمال سبق نشرها للمؤلف :

١ ـ الفلبّين : سلسلة شعوب العالم . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

٢ ـ The Political History of Egypt (1952 - 1970) : Bibliographical Essay and Annotated Billiography. Canberra : Univerity of Canberra, 1975.

٣ ـ المعذبون : مجموعة قصص قصيرة من الأدب الفلبينى ، تأليف بينفنيدو سانتوس . القاهرة : الدار العالمية للنشر ، ١٩٨٤ . (ترجمة عن الإنجليزية) .

٤ ـ الدولة اليهودية ، تأليف ثيودور هرتسل . القاهرة : دار الزهراء للنشر ، ١٩٩٤ . (ترجمة عن الإنجليزية) .

٥ ـ الإسلام بين الشرق والغرب ، تأليف على عزت بيجوفيتش . ميونخ (ألمانيا) : مؤسسة بافاريا للنشر ، ١٩٩٤ . الطبعة الثانية (القاهرة : دار النشر للجامعات ١٩٩٦) .

أعمال تحت النشر :

البوسنة فى قلب عاصفة : (دراسة فى التاريخ السياسى) .

ـ كشفو .

كشاف الأعلام والموضوعات

أتاتورك، مصطفى كمال: ٣٦، ٤١، ٥٣ـ٥٥، ٩٥.
الاتحاد الأوربى: ٢٩، ٩٥، ٩٦.
الاتحاد السوفييتى: ٢٥، ٧١، ٧٩، ٩٥، ١٠١. انظر أيضا: روسيا.
الاتحاد اليوغسلافى الجديد. انظر: يوغسلافيا.
إثيوبيا: ٩٢، ٩٣.
الأرثوذكس: ١٤، ٢٨.
الأرجنتين: ١٠٢.
الأرناءوط، محمد موفّق: ٢٤.
أرنولد، توماس: ٣٨.
أسبانيا: ٥٥، ٩٨.
إسبوزيتو، چون لـ.: ٣٥، ٣٨.
الأستاشا: ٢١، ٢٣.
أسد، محمد: ٢٢.
إسرائيل: ٤٧.
الاشتراكية. انظر: الشيوعية.
الأصولية: ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣ـ٣٨.
أفضل محمد: ١٠.
أفغانستان: ٥٥.
أفلاطون: ٦٤.
إقبال: ٩٠.
ألمانيا: ٩٥.

أمريكا . انظر : الولايات المتحدة الأمريكية .
الأمم المتحدة : ١٧ ، ٢٩ ، ٣٢ .
أمين ، عثمان : ٦٥ .
إنجلترا . انظر : بريطانيا .
الأندلس . انظر : أسبانيا .
إندونيسيا : ٤٦ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٧٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٠٤ .
أوين (لورد) ، داڤيد : ١٦ .
إيران : ٣١-٣٣ ، ٥٥ ، ٩٢ .
إيڤتتش ، ميرولوب : ٣٨ .
باكستان : ٢٢ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ .
بريطانيا : ٤٨ ، ٦١ ، ٩٦ .
البشرى ، طارق : ٦١ .
البلقان : ١٣ ، ٤٠ .
بن نبى ، مالك : ٩٧ .
بنتشاسيلا : ٩٥ . انظر أيضا : سوكارنو .
بوچيراتش ، حمدى : ٢٣ ، ٢٤ .
بورقيبة ، الحبيب : ٥٩ ، ٦٠ .
بوسانا كروبا (مدينة) : ٢٠ .
البوسنة : ٧ ، ٨ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ .
بيترس ، نلْز هلفج : ٢٩ .
تركيا : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٩٥ ، ٩٧ .
توچمان ، فرانيو : ٢٨ .
تومسون ، مارك : ١٧ ، ١٨ .
تونس : ٥٩ ، ٦٠ .
تيتو ، چوزيف بروز : ١٣ ، ٢٢ .
جامعة الأزهر : ٢٠ ، ٢٢ .
جامعة جرينتش : ١٠ .

جامعة سانت چوزيف ببيروت: ٩٥ .
جاوه: ٥٦، ١٠٦ .
الجبل الأسود: ١٧، ٢٥، ٢٧ .
الجزائر: ٥٥، ١٠٦ .
جلينى، ميشا: ١٣، ١٤، ٢٨، ٣٧، ٣٨ .
چنيف: ٢٨ .
الحداثة: ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٩ـ٥٤، ٥٨ـ٦١ .
حزب البعث: ٩٥ .
حزب العمل الديمقراطى: ٢٦ .
خطة ڤانس ـ أوين: ٢٩ .
الخمينى، آية الله: ٣١ـ٣٣ .
دمشق: ٥٥ . انظر أيضا: سوريا .
دوبراشا، قاسم: ٢١ .
دوزو، حسين: ٢٢ .
الديمقراطية: ١٤، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٤٢، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ١٠٠ .
الرأسمالية: ٤٤، ١٠٠ـ١٠٣ .
رشدى، سلمان: ٣٣ .
روسيا: ٣٧، ٤٥ . انظر أيضا: الاتحاد السوڤييتى .
روفائيل، جميل: ٣٨ .
زجونيانين، دوشكو: ٢٤ .
زكريا، فؤاد: ٦٠ .
سراييڤو: ٨، ١٥، ١٧، ٢٠، ٢٣ .
سنكيانج: ٩٣ .
سعيد، إدوارد: ٣٧ .
سلوڤينيا: ١٤، ١٨، ٢٥، ٢٧، ٢٨ .
سمرقند: ٥٥ .
سوريا: ٥٥ . انظر أيضا: دمشق .

السوق الأوربية المشتركة : انظر : الاتحاد الأوربى .
سوكارنو : ٩٥ . انظر أيضا بنتشاسيلا .
السويد : ٧١ ، ١٠٢ .
سيناء : ١٠٥ .
شانتونج : ٥٥ .
الشبان المسلمون : ٢٠ـ٢٢ .
الشتنك : ١٥ ، ٣٧ .
شوسيتش ، درويش : ٢٣ .
الشيوعية : ١٣ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٢ـ٢٦ ، ٤٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ـ١٠٣ .
صرب البوسنة : ١٤ـ١٧ ، ٢٧ـ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٧ .
صربيا : ٨ ، ١٤ـ١٦ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٦ـ٣٠ ، ٣٧ .
صربيا الكبرى . انظر : صربيا .
الصهيونية : ٩٨ ، ٩٩ .
الصين : ٥٥ ، ٥٨ ، ٩٦ .
العراق : ٥٥ .
العلمانية : ٣٦ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٧ .
الڤاتيكان : ٩٨ .
فرنسا : ٥٥ ، ٩٥ ، ٩٦ .
فلسطين : ٩٣ ، ٩٨ ، ٩٩ .
ڤوليامى ، إدْ : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .
القدس : ٩٨ ، ٩٩ .
القرآن : ٤١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٧ـ٥٩ ، ٦٤ـ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٣ـ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٦ .
قرطاج : ٥٥ .
القسطنطينية : ٥٥ .
قناة السويس : ٤٨ ، ٦١ .
القولبة : ٩ ، ٣١ـ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ـ٣٩ .

القومية: ٩٠-٩٤.
الكاثوليك: ١٤، ٢٨. انظر أيضا: المسيحية.
كارنجتون (لورد): ١٦.
كراچيتش، رادوڤان: ١٦-١٨، ٢٧، ٣٠.
كراپينا: ٢٧.
كروات البوسنة: ٢٨، ٣٠، ٣٧.
كرواتيا: ١٤، ١٨، ٢٣، ٢٥-٢٨، ٣٧.
كسوڤا: ١٥، ٢٥، ٢٦.
كسوڤو. انظر: كسوڤا.
كشمير: ٩٢، ٩٣.
الكلية السورية البروتستانتينية: ٩٥.
كندا: ٩٦.
كوتشان (رئيس سلوڤينيا): ٢٨.
الكويت: ٩٧.
ليبيا: ٦١، ٩٧.
ماركسى: ١٠٢.
الماركسية: انظر: الشيوعية.
مالكوم، نويل: ١٩، ٢٣، ٢٥-٢٧، ٣٤-٣٨.
ماليزيا: ٥٥.
المجموعة الأوربية. انظر: الاتحاد الأوربى.
محمد (صلى الله عليه وسلم): ٥٥، ٦٥، ٧٤، ٧٦، ٨٨.
مُحيتش، فؤاد: ٢٣.
مراد الأول ابن أورخان (السلطان العثمانى ١٣٦٢-١٣٨٩م): ١٥.
المسيحية: ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٦٥، ٩٨، ٩٩. انظر أيضا: الأرثوذكس، الكاثوليك.
مصر: ٥٥، ٩٢، ٩٦.
المغرب: ٤٦، ٩١.
مقدونيا: ٢٧.
المكسيك: ٩٦.

المكيافيلية: ٣٥، ٤٢، ٤٣.
ملادى مسلمانى. انظر: الشبان المسلمون.
ملاديتش، راتكو: ٣٠.
منصور، أنيس: ٣٩.
ميكوليتش، برنكو: ٢٤.
ميلوس (أمير صربى): ١٥.
ميلوسفيتش، سلوبودان: ١٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠.
النازيّة: ٢١.
نفتا: ٩٦.
نوريس، هارى ثيرلول: ٣٢، ٣٤، ٣٨-٤٠.
نيجيريا: ٥٦.
هتلر: ٢١.
الهند: ٥٥.
الولايات المتحدة الأمريكية: ٥١، ٥٥، ٦١، ٦٥، ٧١، ٧٥، ٧٩، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠١.
اليابان: ٤١، ٥٣، ٥٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠١.
اليهود: ٩٨، ٩٩.
يوغسلافيا: ٧، ١٣، ١٤، ١٧، ٢١-٢٨، ٣٠، ٣١.
اليونان: ٦١.

رقم الإيداع ٤٦٩٨/ ٩٨
الترقيم الدولى 8 - 0453 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الإعلان الإسلامى

علـى عـزت بيجـوفيتش

هذه مقدمة غير عادية لكتاب غير عادي ومؤلف غير عادى أيضا. أما أن كتاب «الإعلان الإسلامى» كتاب غير عادى فيكفى تدليلا على ذلك أنه أثار عاصفة سياسية إعلامية فى أوربا والعالم الغربى بأسره. وهى عاصفة بدأت قبل حرب البوسنة بعشر سنوات ثم صاحبت الحرب واستمرت آثارها باقية إلى اليوم. ويكفى أن هذا الكتاب اعتبرته السلطات اليوغسلافية الوثيقة الأساسية التى قدمت إلى محكمة «سراييفو» عام ١٩٨٣ لإدانة مؤلفه بتهم ملفقة سنتناولها بالتفصيل فى موضعها من المقدمة ، و المهم أن هذا الكتاب استخدم ذريعة لتجريم على عزت والحكم عليه بالسجن أربع عشرة سنة. ويكفى أن هذا الكتاب قد تعرض لقدر هائل من التعليق والنقد والتجريح والدفاع والهجوم، بل تعرض للتحريف والتشويه حتى أصبحت له شهرة مدوّية عند المثقفين والقراء، الأصدقاء منهم والأعداء، سواء منهم الذين قرءوه فى لغته الأصلية «الصربو- كرواتية» صحيحة أو محرفة، أم الذين قرءوا نسخه المترجمة إلى مختلف اللغات العالمية، أم الذين اكتفوا بقراءة الملخصات والتعليقات التى حفلت بها الصحف والكتب فى شتى أنحاء العالم، بل حتى الذين لم يقرءوا شيئا من ذلك بل سمعوا عنه فحسب. و كان من نتائج هذه الشهرة الذائعة أن ارتبط ذكر هذا الكتاب بلازمة نمطية «مقولبة» هى: «إقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة» على أساس زعم بأن هذا هوالموضوع الرئيسى للكتاب و هو هدفه النهائى فى الوقت نفسه. وسنرى الى أى مدى ينطبق هذا الزعم على حقيقة الكتاب عندما نتطرق الى هذه النقطة فى سياق المقدمة، ليكتشف القارئ بنفسه أنه أمام زعم باطل وفرية كبرى مختلقة. من أجل ذلك كله، كان هذا الكتاب كتابا غير عادى.

محمد يوسف عدس

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

تصميم : محمد حجى

703